تداولية الطلب والرفض في التفاوض السياسي
مراسلات الحسين- مكماهون نموذجًا

د. نورهان عبدالرءوف أحمد

مُدَرِّسَة الدراسات اللغوية بقسم اللغة العربية

كلية الألسن، جامعة عين شمس

nourhanabdelraouf@alsun.asu.edu.eg

doi: 10.21608/jfpsu.2021.94135.1131

تداولية الطلب والرفض في التفاوض السياسي
مراسلات الحسين- مكماهون نموذجًا

مستخلص

يقوم هذا البحث على التحليل التداولي لعشر رسائل تدوولت إبان الحرب العالمية الأولى بين شريف مكة الحسين بن علي والمندوب السامي البريطاني في القاهرة هنري مكماهون، حول قيام دولة عربية موحدة مستقلة؛ بغرض الكشف عن تأثير لغة التفاوض السياسي في رسم ملامح تاريخ العرب الحديث.

وهو ينقسم إلى قسمين: الأول نظري يشرح المفاهيم التداولية الأساسية للدراسة، وأبرزها: نظرية الأفعال الكلامية التي أسسها جون أوستن وطورها جون سيرل، ومبدأ التأدب القائم على مفهومي الوجه الإيجابي والوجه السلبي وفقًا لدراسة براون وليفنسون، والمبدأ التعاوني الذي حدد قواعده باول جرايس. والقسم الثاني تطبيقي يحلل الرسائل تداوليًا بشكل متتالٍ.

ينطلق البحث من حقيقة أن كُلًّا من فِعلَي الطلب والرفض له جانب مهدد لوجهَي المرسِل والمرسَل إليه، ومن فرضية أن كِلا الطرفين يسعى إلى التعامل مع ذلك التهديد بما يخدم مصالحه السياسية، فيستغله أو يتجنبه، ويدفعه عن نفسه أو يغض الطرف عنه وفقًا لتقديره لتلك المصالح، في إطار شكلي من التعاون قد يُنتَهَك مضمونه التعاوني خلال التفاوض.

الكلمات المفتاحية: الأفعال الكلامية، مبدأ الوجه، المبدأ التعاوني، الثورة العربية الكبرى، القضية الفلسطينية.

The Pragmatics of Request and Refusal in Political Negotiation Hussein-McMahon Correspondence as an Example

Dr. Nourhan Abdel Raouf Ahmed
Lecturer at the Department of Arabic Language
Faculty of Al Alsun, Ain Shams University

Abstract

This article pragmatically studies ten letters exchanged during World War I, between Hussein ibn Ali, emir of Mecca, and Sir Henry McMahon, British high commissioner in Egypt, concerning the formation of an independent united Arab state. The article aims to explore the effect of the political language on shaping the features of modern Arab history.

It consists of two parts: A theoretical part, which explains the basic pragmatic concepts of the study (mainly speech acts theory, politeness principle, and cooperative principle). And a practical part, which pragmatically analyzes the letters.

It assumes that the sender as well as the addressee deal with the face-threatening aspects of the request act and the refusal act according to their political interests, within a cooperative frame, which may be violated in turn during the negotiation.

***Keywords*:** Speech acts, Face principle, Cooperative principle, Great Arab Revolt, Palestinian issue.

مقدمة:

هل يمكن للغة أن تغير مسار التاريخ؟ قد يكون في الإجابة بـ"نعم" على هذا السؤال قدر كبير من المبالغة... وقد لا يكون! إن بعض استعمالات اللغة وتطويعاتها يملك قدرة هائلة على تغيير مواقف الأفراد والجماعات، وإعادة تشكيل سُلَّم أولوياتهم... على حل بعض القضايا النزاعية الشائكة، وترك بعضها معلقًا مقلقلًا لسنوات... لقرون... وربما إلى الأبد.

هذه الدراسة تستكشف جانبًا من تأثير لغة التفاوض السياسي في رسم ملامح تاريخ العرب الحديث، بل وجغرافياهم كذلك، من خلال التحليل التداولي لعشرة من النصوص الوثائقية تُشَكِّل رسائل تدوولت إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤– ١٩١٨م) بين شريف مكة الحسين بن علي والمندوب السامي البريطاني في القاهرة هنري مكماهون، حول قيام دولة عربية موحدة مستقلة.

اقتضت محاولةُ رصدِ الاستعمالاتِ اللغويةِ واستجاباتِها التحليلَ المتواليَ لكل رسالة على حدة، سبقه قسم نظري فيه تعريف مختصر بمادة الدراسة وسياقها، وعرض للمفاهيم التداولية الأساسية التي اعتمدت الدراسة على تطبيقها.

القسم النظري:

أ. **مراسلات الحسين– مكماهون: السياق وأطراف التفاوض:**

سلسلة من الرسائل المتبادَلة خلال الحرب العالمية الأولى – تحديدًا في عامَيْ ١٩١٥ و١٩١٦م –، بين الحسين بن علي شريف مكة – ملك الحجاز فيما بعد – والمندوب السامي البريطاني في مصر آنذاك هنري مكماهون Vincent Arthur Henry McMahon[١].

كانت الحكومة العثمانية قد عينت الحسين بن علي أميرًا لمكة عام ١٩٠٨م

[١]- الحسين بن علي: شريف مكة، ١٩٠٨ ـ ١٩١٧م، وملك الحجاز ١٩١٧ ـ ١٩٢٤م، توفي ١٩٣١م.
- هنري مكماهون: المندوب السامي البريطاني في مصر ١٩١٥ ـ ١٩١٧م، توفي ١٩٤٩م.
بين الحسين ومكماهون العديد من المراسلات، لكن الأساسية منها التي تُقصَد عادةً ويُعتد بها بوصفها وثائق سياسية هي الرسائل العشرة المحددة في هذه الدراسة.
ونصوص الرسائل متاحة في أكثر من كتاب وأكثر من موقع إلكتروني، منها موقع مؤسسة الدراسات الفلسطينية: www.palestine-studies.org.

للإشراف على المناطق المقدسة في مكة والمدينة، وإدارة شئون الحج، تحت مظلة الحكم العثماني. وتزامن تعيينه مع الاضطرابات التي وقعت في تركيا وأدت في النهاية إلى خلع السلطان عبد الحميد الثاني[١]. لم يثق الحسين بالدولة العثمانية، وسعى إلى الحصول على الدعم البريطاني من أجل الاستقلال العربي عنها؛ فبادر إلى التواصل مع المندوب السامي البريطاني في مصر.

لم تتحمس بريطانيا في البدء للتحالف مع الحسين، لكنها أدركت بعد دخول العثمانيين الحرب ضدها القيمة الاستراتيجية التي تحققها لها الشراكة مع حليف مسلم.

وقد نوقش عبر المراسلات مسألة الدعم البريطاني لإنشاء دولة عربية مستقلة معارضة للدولة العثمانية، في مقابل خوض العرب الحرب إلى جانب بريطانيا.

في المحصلة لم تخرج المراسلات باتفاقات نهائية، ووُضِعَت قضاياها جانبًا للتفاوض في وقت لاحق، وتناقض ما جاء فيها مع ما تم بالفعل فيما بعد بموجب اتفاقية سايكس–بيكو ووعد بلفور، في ظل خلاف كبير بين السياسيين العرب والبريطانيين حول تفسير فقراتها، ولا سيما فيما يخص فلسطين.

لكن الحسين كان قد وثق وقتها في الدعم البريطاني له، وأعلن على إثر هذه الرسائل قيام الثورة العربية ("الكبرى" – كما سميت آنذاك –) ضد الحكم العثماني. نجحت الثورة في السيطرة على بعض المناطق في الحجاز والشام والعراق، لكنها اصطدمت فيما بعد بالمصالح الفرنسية، والتخلي البريطاني[٢].

كانت هذه المراسلات تُتَبادَل رسميًا باللغة العربية، بما في ذلك رسائل مكماهون التي كان يصوغها أحد موظفي مكتب الترجمة التابع للاعتماد البريطاني بالقاهرة، ويراجِعها هنري ستورس Ronald Henry Amherst Storrs معاون مكماهون[٣].

١- احتجاجات حركة تركيا الفتاة وجمعية الاتحاد والترقي ١٩٠٨م.
وقد خُلِع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩، وتُوُفِي ١٩١٨م.

2- www.britannica.com/topic/Husayn-McMahon-correspondence.

3- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*. Cambridge University Press, digital print 2010 (first published 1976), p. 177.

وستورس هو أحد مسئولي وزارة المستعمرات البريطانية، والسكرتير الشرقي لبريطانيا في القاهرة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٧م، كانت اتصالات مكماهون بالحسين تجري تحت إشرافه، ويَرِد اسمه في الرسائل "استورس".

ب. **مفاهيم تداولية أساسية:**

١. **نظرية الأفعال الكلامية:**

وفقًا لجون أوستن John Austin يمكن أن يُنجَز الفعل الكلامي عمومًا إما بشكل صريح explicit عبر استعمال منطوقات تحتوي على فعل أدائي يشير صراحةً إلى القوة الإنجازية ويحدد العمل المُنجَز (أَعِد– أُحَذِّر– أعتذر– أوافق– أطلب...)، وإما بشكل أولي primary عبر منطوقات يغيب عنها الفعل الأدائي لكن يُفترَض وجوده فيها من فهم نية المتكلم وسياق الكلام ("سآتي غدًا"، أي "أعد بأن آتي غدًا")[١].

وليكون الفعل الكلامي ناجحًا لا بد من مراعاة ما يُعرَف بشروط الملاءمة felicity conditions، وهي عند جون سيرل John Searle أربعة[٢]:

١. الشرط التمهيدي preparatory: يتعلق بالمقدرة، وهو يتحقق في الأفعال الالتزامية (كالوعد) إذا كان المتكلم قادرًا على إنجاز العمل وكان المخاطَب يرغب في أن ينجز المتكلم العمل، ويتحقق في الأفعال التوجيهية (كالطلب) إذا كان المخاطَب قادرًا على إنجاز العمل.
٢. شرط الإخلاص sincerity: يتعلق بنية المتكلم، ويتحقق في الأفعال الالتزامية إذا كان المتكلم ينوي حقًا أن ينجز العمل، ويتحقق في الأفعال التوجيهية إذا كان المتكلم يرغب حقًا في أن ينجز المخاطَب العمل.
٣. شرط المحتوى القضوي propositional content: يتعلق بالقضية التي تحتويها العبارة، أي وجود عمل مستقبلي يقع على المتكلم إنجازه في الأفعال الالتزامية، ووجود عمل مستقبلي يقع على المخاطَب إنجازه في الأفعال التوجيهية.
٤. الشرط الأساسي essential: يتعلق بممارسة الفعل الكلامي، أي ضمان المتكلم أداء العمل في الأفعال الالتزامية، ومحاولة المتكلم حمل المخاطَب على أداء العمل في الأفعال التوجيهية.

كان جون سيرل قد صنف الأفعال الكلامية خمسة أصناف – مخالفًا تصنيف

[١]- أوستين، جون: نظرية أفعال الكلام العامة- كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، ١٩٩١، صـ٨٥ وما بعدها.

[2]- Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, Cambridge University Press, 1999 (first published 1979), p. 44.

أوستن –، هي[1]:

١. الإخباريات أو التمثيليات Assertives/Representatives: الغرض الإنجازي منها هو شهادة المتكلم بحقيقة المحتوى المعبَّر عنه، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم[2]، ويتحقق شرط الإخلاص بصدق الاعتقاد.

٢. التوجيهيات Directives: الغرض الإنجازي منها هو محاولة المتكلم دفع المخاطَب إلى فعل شيء ما، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص يتحقق بصدق الرغبة – وهذا هو الصنف الذي ينتمي إليه فعل الطلب موضع اهتمام هذه الدراسة –.

٣. الالتزاميات Commissives: غرضها الإنجازي هو التزام المتكلم بمسار عمل في المستقبل، واتجاه المطابقة من العالم إلى الكلمات، ويتحقق شرط الإخلاص بتوفر النية.

٤. التّعبيريّات Expressives: غرضها الإنجازي التعبير عن حالة نفسية يحددها شرط الإخلاص تجاه حالة واقعة يعبر عنها المحتوى القضوي (مثل الشكر والتهنئة)، وليس لها اتجاه مطابقة.

٥. الإعلانيات Declarations: التي يؤدي أداؤها الناجح إلى التطابق بين محتواها القضوي والعالم (إذا أعلنت الحرب، فالحرب جارية)، واتجاه المطابقة فيها مزدوج (من العالم إلى الكلمات، ومن الكلمات إلى العالم)، ولا تحتاج إلى شرط إخلاص.

وتعد دراسة جون سيرل الموسعة لما يُعرَف بالأفعال الكلامية غير المباشرة من أهم بصماته في تطوير نظرية الأفعال الكلامية؛ فهو لم يكتفِ بالنمطين اللذين درسهما أوستن للأفعال الكلامية (الفعل الكلامي الصريح، والفعل الكلامي الأولي)، بل حلل الفعل الكلامي غير المباشر، أي المنطوقات التي يلفظها المتكلم ليعني بها ما يقول ويعني بجانبه معنى إضافيًا؛ فهي منطوقات تحتوي على محددات القوة الإنجازية لأحد الأفعال الكلامية، من أجل إنجاز فعل كلامي آخر – كما في الطلب الذي يُقدَّم مثلًا عن طريق

---

[1]- Searle, John R. "A Taxonomy of Illocutionary Acts." In *Language, Mind and Knowledge*, ed. Keith Gunderson. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1975, pp. 354- 361.

[٢]- "اتجاه المطابقة" بين العالم والكلمات أي أيهما يوجد ثانيًا ليطابق الموجود أولًا.

الإدلاء بتصريح –[١].

- **إنجاز فعل الطلب:**

يُكتفَى في هذا القسم النظري بعرض الوسائل التي حددها سيرل لإنجاز فعل توجيهي – طلبي بالأساس – غير مباشر؛ إذ إن فعل الطلب هو عمود هذه الدراسة الأول[٢]. بناءً على تحليلاته خرج سيرل بالقواعد العامة الآتية:

يمكن إنجاز فعل الطلب – أو أي فعل توجيهي آخر – عن طريق[٣]:

١. السؤال عما إذا كان الشرط التمهيدي للفعل متحققًا، أو النص على تحققه. (قدرة المخاطَب على إنجاز العمل المطلوب: "هل تستطيع...؟"– "يمكنك أن تفعل...")
٢. السؤال عما إذا كان شرط المحتوى القضوي متحققًا، أو النص على تحققه. (حصول العمل المطلوب: "هل ستتوقف عن الضوضاء؟"– "الضباط سيرتدون ربطات عنق")
٣. النص على تحقيق شرط الإخلاص ("أريدك أن تفعل...")، ولا يمكن إنجاز فعل توجيهي بالسؤال عنه – وفقًا لسيرل –.
٤. السؤال عما إذا كانت هناك أسباب جيدة أو جوهرية لأداء العمل المطلوب، أو النص على وجودها، إلا إذا كان السبب هو رغبة المخاطَب في أداء العمل فهنا يمكن فقط عن طريق السؤال.

ويدخل ضمن الأسباب صيغ الإلزام والجودة والصواب التي تحمل فلسفيًا وأخلاقيًا معنى التوجيه[٤].

(من أمثلة ذلك: "عليك أن تكون أكثر تهذيبًا"– "هل يجب عليك أن تستمر في الطَرْق؟"– "ألا ينبغي أن تتوقف هنا؟"– "أنت تقف فوق قدمي"– "لقد أخبرتك ألف مرة ألا ترتدي القبعة في المنزل"–...)

ومن الممكن أن تحتوي جملة الطلب غير المباشر على عنصرين غير مباشرين أو

---

[1]- Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, p. 30.

[٢]- يُشار في هذه الدراسة إلى وسائل الفعل الالتزامي غير المباشر في مواضع الحاجة إليها عند التطبيق.

[3]- Ibid., p. 45.

والأمثلة التي استنبط منها سيرل هذه القواعد العامة في صـ٣٦- ٣٩.

4- Ibid., p. 32.

أكثر، أو على عنصر مباشر وآخر غير مباشر أو أكثر[١].

- **إنجاز فعل الرفض:**

بالإفادة من نظرية الأفعال الكلامية حددت لايسلي بي بي Leslie Beebe ومعها باحثان آخران تصنيفًا لوسائل فعل الرفض، وقد طُوِّر أساسًا ضمن أبحاث تعليم اللغة الثانية وفي ضوء ما يُعرَف بـ"التداولية المقارنة" أو "التقابلية" (contrastive pragmatics) أو "تداولية ما بين الثقافات" (cross- cultural pragmatics).

اعتمد تصنيف بي بي وزميليها لوسائل الرفض على الصيغة الدلالية التي تنقل محتوى ما مؤديًا لفعل الرفض، في عبارة غالبًا ما تتسم في حد ذاتها بطابع تفاوضي نابع من تناوب أدوار الكلام، وقد تنطوي على درجة من عدم المباشَرة، وتتأثر بالمتغيرات اللغوية– الاجتماعية كمكانة المشاركين في الحوار[٢].

وقد جاء هذا التصنيف بالشكل التالي[٣]:

أولًا: الرفض المباشر:

أ) أدائي: أي التعبير الصريح عن رفض المحتوى باستعمال فعل أدائي "أرفض".

ب) غير أدائي: ويكون:

١. إما بأداة النفي "لا".

٢. وإما بالتعبير عن انعدام الرغبة أو انعدام الإمكانية ("لا أستطيع"– "لا يمكن"– "لا أظن"...).

ثانيًا: الرفض غير المباشر:

أ) التعبير عن الأسف ("أنا آسف"– "أشعر بالأسى"...).

ب) التمني ("ليتني أستطيع"...).

1- Ibid., p. 38.

2- Beebe, Leslie M., Tomoko Takahashi, and Robin Uliss-Weltz. "Pragmatic transfer in ESL refusals." In *Developing Communicative Competence in a Second Language*, ed. Robin Scarcella, Elaine Andersen, Stephen Krashen. New York: Newbury House, 1990, p. 56.

3- Beebe, Leslie M., Tomoko Takahashi, and Robin Uliss-Weltz. "Pragmatic transfer in ESL refusals.", pp. 72, 73.

ج) ذكر عذر أو سبب أو شرح (مثلًا: "أطفالي سيكونون في المنزل"- "أنا مصاب بالصداع"...).

د) اقتراح بديل: "أستطيع أن أفعل س بدلًا من ص" (مثلًا: "أنا أُفَضِّل كذا")، أو "لِمَ لا تفعل س بدلًا من ص؟" (مثلًا: "لِمَ لا تسأل غيري؟"...).

هـ) التقييد بشرط في المستقبل أو في الماضي ("لو أنك سألتني سابقًا لكنت...").

و) الوعد بموافقة مستقبلية ("سأفعل في المرة القادمة"- "أعدك بأن...").

ز) التعبير عن مبدأ ("أنا لا أدخل في عمل مع أصدقائي أبدًا").

ح) التعبير عن فلسفة ("الإنسان لا يستطيع أن يكون حذرًا").

ط) محاولة إثناء المحاور عن طلبه: ويدخل تحتها:

١. التهديد أو التحذير من العواقب السلبية ("لن أكون في حالة مزاجية جيدة اليوم").

٢. إشعار صاحب الطلب بالذنب (مثل قول نادل للزبائن: "لا يمكنني كسب لقمة عيشي بطلبكم القهوة وحدها"- ...).

٣. انتقاد صاحب الطلب: التعبير عن شعور أو رأي سلبيين أو إهانة ("من تظن نفسك؟"- "هذه فكرة فظيعة"- ...).

٤. طلب المساعدة أو التعاطف أو العون بالتخلي عن الطلب أو تعليقه.

٥. إعفاء المحاور من اللوم ("لا تقلق بشأن ذلك"- "هذا جيد"- "لستَ مجبرًا على ...").

٦. الدفاع عن النفس ("إنني أبذل قصارى جهدي"- "أنا لم أرتكب خطأ"-...).

ي) القبول الذي يُعَدُّ بمثابة الرفض: ومنه:

١. رد غير مميز أو غير محدد.

٢. انعدام الحماس.

ك) التهرب أو التجنب:

١. غير لفظي: الصمت- التلعثم- عدم القيام بأي شيء- المغادرة جسديًا.

٢. لفظي: تغيير الموضوع- المزاح- ترديد جزء من الطلب في تساؤل.

٣. التأجيل والمماطلة ("سأفكر في الأمر").

٤. التملص ("لا أعرف"- "لستُ متأكدًا").

ثالثًا: وسائل رفض مساعِدة أو ملحقة:

وهي العناصر التي لا تُعَد وسائل رفض إذا جاءت وحدها، بل لا بد من أن تصاحبها وسيلة أخرى؛ لكي يُفهم منها الرفض[١]:

أ) التعبير عن رأي أو شعور إيجابي أو موافقة ("هذه فكرة جيدة"- "سأحب فعل ذلك"...).

ب) التعبير عن التعاطف ("أدرك أنك في موقف صعب"...).

ج) كلام الحشو (آه- حسنًا- أوه- إممم).

د) الامتنان أو التقدير.

فهذه الوسائل المساعدة قد تدل على القبول إذا استُعمِلتَ مستقلةً، لكنها تصاحب صيغ الرفض الأخرى للتلطيف وتخفيف الحدة.

٢. **المبدأ التعاوني:**

اقترحه فيلسوف اللغة الإنجليزي باول جرايس Paul Grice، ويفترض بموجبه أن طرفي أي اتصال يسعيان عادةً إلى التعاون لتحقيق غرض مشترك، أو على الأقل اتجاه في الحوار متوافق عليه. وبشكل عام على كل طرف أن يجعل إسهامه في الحوار مطابقًا لمقتضى هذا الهدف أو هذا الاتجاه[٢].

ويقوم المبدأ التعاوني على أربع قواعد، هي[٣]:

١) قاعدة الكم Quantity: أن يقدم المُرسِل القدر المطلوب من المعلومات لا أكثر ولا أقل.

٢) قاعدة الكيف Quality: أن يكون صادقًا، ولا يقدم معلومات خاطئة أو معلومات لا يستطيع أن يثبت صحتها.

٣) قاعدة الملاءمة Relation: أن تكون إسهاماته ملائمة للخطاب، ولا تخرج عن

---

[1]- Ibid., p. 57.

[2]- Grice, H. P. *Studies in the Way of Words*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991, p. 26.

[3]- Ibid., p. 28.

موضوعه.

٤) قاعدة الطريقة Manner: أن يكون واضحًا ومنظمًا ويتجنب الغموض.

ويقع انتهاك violation لهذا المبدأ التعاوني – وفقًا لجرايس – عندما يمتنع طرف في الحوار عن تطبيق إحدى القواعد الأربعة بهدوء وبغير أن يُظهِر؛ لأجل إنتاج سوء فهم لدى مخاطبه.

وهذا غير التهاون floating الذي تتعرض له القواعد حين يتوقع المتحدث أن مخاطبه قادر على كشف المعنى الخفي وراء أقواله التي تنطوي على ما يُعرَف بـ"الاستلزام الحواري" conversational implicature (أو "الاقتضاء التخاطبي" في بعض الترجمات)[١].

٣. التأدب ومبدأ الوجه:

يُعَدُّ مبدأ الوجه الذي صاغته بينيلوب براون Penelope Brown وستيفين ليفنسون Stephen Levinson المبدأ الأكثر تكاملًا وشيوعًا لدراسة التأدب في الدراسات التداولية.

ويُعَرَّف "الوجه" في الحقل التداولي بأنه تقدير الأشخاص لذواتهم في المواقف العامة[٢]، وتقسم براون وليفنسون أنماط الوجه بحسب ما يطمح إليه صاحبه إلى[٣]:

١. **الوجه السلبي (الدافع) negative face**: أي مطمح المرء في عدم إعاقة أفعاله، وهو يرتبط بالتميز أو الاختلاف difference.

٢. **الوجه الإيجابي (الجالب) positive face**: أي مطمح المرء في أن يكون مقبولًا، ويرتبط بالتضامن أو الاندماج solidarity[٤].

---

[1]- Ibid., p. 30.

2- Brown, Penelope, and Stephen C. Levinson. *Politeness: Some Universals in Language Usage*, Cambridge University Press, 1987 (first published 1978), p. 2.

[3]- Ibid., pp. 13, 34.

٤- يترجم عبد الهادي بن ظافر الشهري – وتبعه في ذلك آخرون – مصطلحي "negative face" و"positive face" بـ"الوجه الدافع" و"الوجه الجالب"، وهذان الاختياران أقرب في العربية إلى المعنى المقصود بالفعل، لكن استعمالهما قد يُفقِد المصطلحين الصلة بمصطلحين لاحقين هما "negative politeness" أو "التأدب السلبي"، و"positive politeness" أو "التأدب الإيجابي"؛ إذ لا يمكن أن يؤدي مصطلحا "التأدب الدافع" و"التأدب الجالب" المعنى المراد منهما، ولم يستعملهما حتى الشهري نفسه.

راجع:

عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ط١، ٢٠٠٤، صـ١٠٤، ١٠٥.

ويمكن لبعض الأفعال الكلامية أن يُشَكِّل بأصالته تهديدًا للوجه، قسمت براون وليفنسون هذه الأفعال بدورها[1]:

← باعتبار وجه المرسَل إليه:

١. أفعال تهدد الوجه السلبي للمرسَل إليه: وهي الأفعال التي يظهر فيها محاولة المرسِل عرقلةَ حرية المرسَل إليه في التصرف، مثل الأفعال التي تتطلب منه إنجاز عمل مستقبلي (كالطلب)، والأفعال التي تستدعي منه رد فعل أو تكبده دَيْنًا مستقبليًا تجاه المرسِل؛ فتضع عليه ضغطًا لقبولها أو رفضها (كالعروض والوعود)، والأفعال التي تعبر عن طمع المرسِل في بعض ما يمتلكه المرسَل إليه مما يوجب عليه إما منعه وإما منحه (كالمجاملات والتعبير عن الحسد أو الرغبة في الإيذاء).

٢. أفعال تهدد الوجه الإيجابي للمرسَل إليه: وهي التي تدل على عدم اكتراث المرسِل بمشاعر المرسَل إليه ورغباته. ومنها: التقييمات السلبية لبعض جوانب وجهه الإيجابي، كالتعبير عن نبذه أو ازدرائه أو توبيخه، أو أي إشارة من المرسِل إلى أنه لا يحبه أو لا يحترم سماته وقيمه أو يتحداه أو يعترض عليه. ومنها كذلك الأفعال التي تعبر عن عدم اكتراث المرسِل بالوجه الإيجابي للمرسَل إليه، كالتعنيف أو التهديد أو إثارة موضوعات خلافية معه، أو إظهار رفض واضح للتعاون معه.

← باعتبار وجه المرسِل:

١. أفعال تهدد الوجه السلبي للمرسِل: مثل اضطراره للإعراب عن الشكر أو الاعتذار (فيطأطئ وجهه)، أو قبول الشكر أو الاعتذار (فيضطر للتجاوز عن زلات محاوره)، أو اضطراره لقبول العروض بما تحمله من دَيْن محتمل، أو اضطراره للتغاضي عن أخطاء الآخرين مما يشعره بالحرج أمام نفسه، أو التزامه بوعود وعروض لا يرغب فيها فإذا أظهر عدم رغبته هدد وجهه الإيجابي.

٢. أفعال تهدد الوجه الإيجابي للمرسِل: كالإقرار بالخطأ في حق المرسَل إليه، وقبول

[1]- Brown, Penelope, and Stephen C. Levinson. *Politeness: Some Universals in Language Usage*, pp. 65- 68.

المجاملة والاضطرار إلى التهوين من شأنها أو ردها، وكذلك فقد التحكم في الجسد (كالتعثر) أو في المشاعر (كالبكاء).

ومن وجهة نظر براون وليفنسون فإن مساحة تهديد الوجه مشتركة بين المرسِل والمرسَل إليه؛ لذلك فإن كلًا منهما يسعى إلى تجنب الأفعال المهددة لوجه الآخر أو التقليل من تهديدها. وهنا يكون أمام كل طرف عدة مسارات يمكن أن يسلكها في حواره[1]:

أ) ألا ينجز الفعل المهدد للوجه على الإطلاق (الصمت).

ب) أن ينجز الفعل، وهنا يمكن له أن:

١. ينجزه بشكل تلميحي غير صريح off-record (مثلًا: "لقد نفد مالي"، بدلًا من طلب المال مباشرة).

٢. ينجزه بشكل صريح on-record، وهنا أيضًا يكون أمامه خياران:

الأول: التهديد السافر للوجه بدون محاولة تلطيف ("أنت، أعرني بعض المال").

الثاني: محاولة صيانة الوجه وتلطيف التهديد، باللجوء إلى استراتيجيات التأدب:

← التأدب السلبي negative politeness: المنصب على صيانة الوجه السلبي.

← التأدب الإيجابي positive politeness: المنصب على صيانة الوجه الإيجابي.

يفيد القسم التطبيقي القادم من هذه المفاهيم والتصنيفات النظرية، انطلاقًا من حقيقة أن كلًا من فعلي الطلب والرفض له جانب مهدد لوجهي المرسِل والمرسَل إليه والكيانين الجمعيين اللذين يمثلانهما، ومن فرضية أن كلا الطرفين يسعى إلى التعامل مع ذلك التهديد بما يخدم مصالحه السياسية، فيستغله أو يتجنبه، ويدفعه عن نفسه أو يغض الطرف عنه وفقًا لتقديره لتلك المصالح، في إطار شكلي من التعاون يتعرض بدوره خلال التفاوض لانتهاكات تخرق مضمونه التعاوني في كثير من الأحيان.

[1]- Ibid., p. 69.

القسم التطبيقي:

- **الرسالة الأولى (١٤/٧/١٩١٥م – ٢ رمضان ١٣٣٣هـ)[١]:**

ضمت الرسالة الأولى (مذكرة الشريف الحسين الأولى إلى السير هنري مكماهون) عدة مطالب تباينت بين مطالب أساسية هي محور التفاوض بين الطرفين، ومطالب فرعية جاءت في سياق الحديث أو استجابة لحدث عابر.

أما المطالب الفرعية فقُدِّمت بالشكلين: المباشر وغير المباشر، لكن المباشر منها جاء بصيغة مخففة، ليس فقط عن طريق الملطفات بل بالأساس عن طريق استعمال فعلٍ أدائي ذي دلالة مخفَّفة في حد ذاتها هو فعل "الرجاء" بدلًا من فعل "الطلب"، وهو هنا ليس سوى تلطيف للكلام وتخفيف من نبرته؛ إذ لا يستدعي المحتوى أي نوع من الشدة؛ فجميعها إما مطالب عارضة ليس لها تأثير طويل الأمد، وإما تابعة لغيرها في التحقق:

- "وإني لأرجوكم هنا أن تفسحوا المجال أمام الحكومة المصرية، لترسل الهدايا المعروفة من الحنطة للأراضي المقدسة (مكة والمدينة) التي أوقف إرسالها منذ العام الماضي".
- "أرجو ألا تزعجوا أنفسكم بإرسال أي رسالة، قبل أن تروا نتائج أعمالنا هنا خلا الجواب على مذكرتنا وما تتضمنه".
- "ونرجو أن يكون هذا الجواب بواسطة رسولنا كما نرجو أن تعطوه بطاقة منكم ليسهل عليه الوصول إليكم عندما نجد حاجة لذلك".

اعتمد المطلب الفرعي الذي جاء في هيئة توجيه غير مباشر على صيغة النصَّ على وجود سبب لأداء الفعل الواقعي المطلوب – هو هنا انتفاء الحاجة –، مع إيراد فعل أدائي إخباري يُعدُّ فعلًا إنجازيًّا ثانويًّا، مؤديًا إلى الفعل التوجيهي الإنجازي الأولي، وهو هنا طلب تمهيدي يوطئ به الحسين لاضطلاعه بتقديم المطالب الجوهرية نيابة عن الشعب العربي؛ بوصفه ممثلًا شرعيًا له:

- **"وأود بهذه المناسبة أن أصرح لحضرتكم ولحكومتكم أنه ليس هناك حاجة لأن تشغلوا أفكاركم بآراء الشعب هنا، لأنه بأجمعه ميال إلى حكومتكم بحكم**

[١]- يوجد في تواريخ بعض الرسائل فرق يوم واحد بين التاريخ الميلادي والهجري المقابل له، ربما يرجع هذا إلى اختلاف يوم كتابة الرسالة عن يوم إرسالها.

المصالح المشتركة".

وأما المطالب الأساسية فقد جاءت في هيئة تعداد للمحتويات القضوية المطلوب تحقيقها، مندرجة تحت صيغة طلب واحدة، هي صيغة غير مباشرة اعتمدت على تقنية السؤال عن وجود أسباب لأداء الفعل، وتحديدًا عن وجود رغبة لدى المخاطَب لأدائه، وهو السبب الوحيد الذي رأى سيرل أنه لا يمكن إنجاز فعل توجيهي غير مباشر بالنص على وجوده، بل يمكن فقط عن طريق السؤال عنه. أُرفِق هذا السؤال بالنص على تحقق شرط الإخلاص متمثلًا في الفعل "يرى" مُسندًا إلى الشعب العربي الذي يُظهِر الحسينُ نفسَه نائبًا عنه، يقول:

- "إنه بالنظر لهذه الأسباب كلها يرى الشعب العربي أنه من المناسب أن يسأل الحكومة البريطانية إذا كانت ترى من المناسب أن تصادق بواسطة مندوبيها أو ممثليها على الاقتراحات الأساسية الآتية:

أولًا: أن تعترف إنجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين– أدنة (أضنة)، حتى الخليج الفارسي شمالًا ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقًا، ومن المحيط الهندي للجزيرة جنوبًا يُسْتَثْنَى من ذلك عدن التي تبقى كما هي – ومن البحر الأحمر، والبحر المتوسط حتى سيناء غربًا.

على أن توافق إنجلترا أيضًا على إعلان خليفة عربي على المسلمين.

ثانيًا: تعترف حكومة الشريف العربية بأفضلية إنجلترا في كل مشروع اقتصادي في البلاد العربية إذا كانت شروط تلك المشاريع متساوية.

ثالثًا: تتعاون الحكومتان الإنجليزية والعربية في مجابهة كل قوة تهاجم أحد الفريقين وذلك حفظًا لاستقلال البلاد العربية وتأمينًا لأفضلية إنجلترا الاقتصادية فيها... .

رابعًا: إذا تعدى أحد الفريقين على بلد ما ونشب بينه وبينها عراك وقتال، فعلى الفريق الآخر أن يلزم الحياد. على أن هذا الفريق المعتدي إذا رغب في اشتراك الفريق الآخر معه ففي وسع الفريقين أن يجتمعا معًا وأن يتفقا على الشروط.

خامسًا: مدة الاتفاق في المادتين الثالثة والرابعة من هذه المعاهدة خمس عشرة سنة...".

بعد ذكر هذه المطالب المفصلة، قدم الحسين طلبًا داعمًا بسرعة الاستجابة، اعتمد فيه على الصيغة المباشرة لكنه أسند الفعل الأدائي المخفف بدوره ("يرجو") إلى الشعب العربي تأكيدًا لأصالة تمثيله السياسي والإجماع على مطالبه:

- **"هذا ولما كان الشعب العربي بأجمعه قد اتفق – والحمد لله – على بلوغ الغاية وتحقيق الفكرة مهما كلفه الأمر، فهو يرجو الحكومة البريطانية أن تجيبه سلبًا أو إيجابًا في خلال ثلاثين يومًا من وصول هذا الاقتراح".**

يُعَدُّ الفعل الإنجازي الطلبي فعلًا مهددًا للوجه السلبي لمستقبِل الطلب، ولوجهَي لمقدمه؛ فأيّ فعل توجيهي يهدد الوجه السلبي للطرف المستهدف منه لأنه يستدعي الامتثال، لكن الطلب بصورة خاصة أكثر تهديدًا لأنه ينفع مقدمه وحده ولا ينفع مستقبِله في شيء. وهو كذلك يهدد وجهي مقدمه لأنه يوقعه في حرج حين يوحي بأنه غير قادر على التعامل مع مشكلاته الخاصة، وبخاصة وجهه السلبي (الدافع) إذا صاحب الطلب مخاطرة بتكبد ثمن أو دَيْن مستقبلي[1]. هذا التهديد المزدوج جعل مقدم الطلب – الشريف الحسين – يعزز رسالته بصنفين من العبارات:

← صنف يوظَّف لصيانة الوجه السلبي لمستقبِل الطلب أو التخفيف من إهدار مائه، وقد أخذ شكلين:

الأول عبارات المدح والود التي افتُتحت بها الرسالة – وغيرها من الرسائل –:

- **"لصاحب السعادة والرفعة نائب جلالة الملك بمصر، سلمه الله. أقدم لجنابكم العزيز أحسن تحياتي الودية واحتراماتي".**

والثاني الإشارة الصريحة المؤكدة إلى المصلحة البريطانية من مساعدة العرب:

- **"كان هؤلاء قد شعروا وتأكدوا أنه من مصلحة حكومة بريطانيا العظمى أن تساعدهم وتعاونهم للوصول إلى أمانيهم المشروعة".**

← وصنف آخر يوظَّف لصيانة الوجه السلبي للمرسِل نفسه، وقد تمثل في التعبير عن كفاءة المرسل وحرية تصرفه بمعزل عن استجابة المخاطَب لمطالبه، عبر أسلوب الشرط

[1]- Cai, Deborah A., and Steven R. Wilson. "Identity implications of influence goals: A cross-cultural comparison of interaction goals and facework." *Communication Studies* 51, no. 4 (2000), p. 309.

الذي يقيد انتظار التعامل بمهلة زمنية محددة:

- **"وإذا انقضت هذه المدة ولم يتلقَ من الحكومة جوابًا فإنه يحفظ لنفسه حرية العمل كما يشاء.**

وفوق هذا فإننا نحن عائلة الشريف نعتبر أنفسنا – إذا لم يصل الجواب – أحرارًا في القول والعمل من كل التصريحات، والوعود السابقة التي قدمناها...".

غير أنها بدت كفاءة منتقصًا منها أو منتقضة بسبب استعمال أسلوب الاختصاص الموحي بانفصال "عائلة الشريف" عن الشعب العربي الذي حرص الحسين على الحديث بلسانه وتقديم المطالب نيابة عنه، فيما بدا إقرارًا ضمنيًا بأن شرعية تمثيله للعرب لن تتحقق بغير الموافقة الإنجليزية.

كما أن الحسين قد أغفل في رسالته الأولى الاحتياط لعامل المخاطرة بتكبد دَيْن مستقبلي، وهو في الواقع عامل حاسم في الرسائل.

يمكن إذن اختصار الغرض الكلي من هذه الرسالة الأولى في أنها ضمت جوهر مطالب الحسين: الاستقلال والحدود، مع محاولات لتلطيفها وإبداء التعاون مع المرسَل إليه.

- **الرسالة الثانية (١٩١٥/٨/٣٠م – ١٩ شوال ١٣٣٣هـ):**

يصف جورج أنطونيوس هذه الرسالة بأنها تُعَد "مثلًا طريفًا من أمثلة المراوغة الرسمية"[١]. لقد أجاب مكماهون بالقبول الصريح في نهاية هذه الرسالة الثانية (أي رد مكماهون على رسالة الحسين الأولى) عن مطلب فرعي واحد من مطالب الحسين هو مطلب المعونات الغذائية، وهو مطلب غيْرَ استراتيجي وغيْرَ بعيد الأثر. أخذ التعبير عن هذا القبول شكل فعل إعلاني أوليّ:

- **"فإنا على كمال الاستعداد لأن نرسل إلى ساحة دولة السيد الجليل وللبلاد العربية المقدسة والعرب الكرام من الحبوب والصدقات المقررة من البلاد المصرية وستصل بمجرد إشارة من سيادتكم وفي المكان الذي تعينونه".**

١- جورج أنطونيوس: "يقظة العرب"، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٧، صـ٢٥٣.

وجورج أنطونيوس (ت. ١٩٤٢م) هو مؤرخ لبناني، يعد كتابه The Arab Awakening الذي ألفه بالإنجليزية من أهم المراجع التي تناولت الأوضاع العربية إبان الحرب العالمية الأولى والثورة العربية ١٩١٦م.

أما المطالب الأساسية فجاء الرد عليها عبر تسلسل من مستويات التمويه والمراوغة؛ عبَّر مكماهون في البداية عن قبول مبدئي جزئي لمطلب الاستقلال عن طريق استعمال الفعل الإخباري ("تؤكد"– "نصرح") والفعل التعبيري ("رغبتنا"– "استصوابنا"– "يرحب")، مع تجنب أي فعل التزامي:

- **"ولهذه النسبة فنحن نؤكد لكم أقوال فخامة اللورد كتشنر[1] التي وصلت إلى سيادتكم عن يد علي أفندي وهي التي كان موضحًا بها رغبتنا في استقلال بلاد العرب وسكانها مع استصوابنا للخلافة العربية عند إعلانها.**
وإنا نصرح هنا مرة أخرى أن جلالة ملك بريطانيا العظمى يرحب باسترداد الخلافة إلى يد عربي صميم من فروع تلك الدوحة النبوية المباركة".

يذكر المؤرخ الإنجليزي إيلي قدوري Elie Kedourie أن مكماهون هنا قد أهمل الاقتراح الذي نتج عن مشاورات الحكومة البريطانية فيما يخص موقف بريطانيا من الخلافة، والذي كان يوصي باستعمال تعبيرٍ ذي دلالة عامة، واستعمل بدلًا من ذلك تعبيرًا يؤكد كلمات الحسين نفسه هو "الموافقة" (approval)، ويستدل قدوري على هذا بعبارة مقتبسة من الترجمة الإنجليزية للرسالة[2]:

- **"we confirm to you the terms of Lord Kitchener's message…in which was stated clearly… our approval of the Arab Khalifate when it should be proclaimed".**

لكن هذا لم يَرِد قط في نص الرسالة العربي الذي وصل إلى الحسين بالفعل، بل إن اللفظ العربي المستعمَل هو "استصواب"، وصحيح كونه يدل على وجهة نظر بريطانية من قضية الخلافة، لكنه لا يعبر على الإطلاق عن قبولها أو الاعتراف الرسمي بها، فهي محض وجهة نظر وجدانية يُعَبَّر عنها، لا تتضمن اتجاه مطابقة بين العالم والكلمات بالمصطلحات التداولية، أي إنها لا تغير شيئًا في العالم حتى وإن تحقق لها شرط الإخلاص، فهي ليست فعلًا التزاميًا بالقبول الرسمي يترتب عليه مطابقة العالم للكلمات.

---

[1]- هوراشيو هربرت كتشنر Horatio Herbert Kitchener: القنصل البريطاني العام في مصر من ١٩١١ إلى ١٩١٤م.

[2]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, pp. 69, 70.

يشير قدوري أيضًا إلى أن مكماهون قد أغفل صياغةً اقتُرِحت عليه في مشاورات المسئولين البريطانيين تشترط موافقة شركاء الحسين في الدين على خلافته؛ مراعاةً للعلاقات البريطانية مع ابن سعود[١] والإدريسي[٢]، وأتى بصيغة معبرة عن "الترحيب" المطلق[٣]. لكن هذا الترحيب ليس مطلقًا كما يدعي قدوري، بل هو مقيَّد في حقيقته، صياغةً وواقعًا، بزمن مستقبلي مجهول عبر عنه الظرف المبهم المضاف إلى حدث معنوي لم يقع بعد ولم يحدَّد له زمن معروف في عبارة "عند إعلانها".

وبكل الأحوال فقد عاد المفاوِض البريطاني مباشرة لينقض ذلك القبول البدائي الشكلي باستعمال تشابكات من وسائل الرفض غير المباشر في تصنيف بي بي وزميليها، فلجأ أولًا إلى آلية التأجيل والمماطلة في الرد على حدود الدولة التي أرادها الحسين، وهي من آليات التهرب من الطلب.

ثم اتجه إلى انتقاد الطرف الآخر وهو من آليات محاولة إثناء مقدِّم الطلب عن طلبه، إلى جانب محاولة تغيير الموضوع بتحويل دفة التفاوض إلى وجهة خارجية هي الخطر الألماني التركي المشترك، وهي من آليات التهرب اللفظي. يقول:

- **"وأما من خصوص مسألة الحدود والتخوم فالمفاوضة فيها تظهر أنها سابقة لأوانها، تصرف الأوقات سدى في مثل هذه التفاصيل في حالة أن الحرب دائرة رحاها ولأن الأتراك أيضًا لا يزالون محتلين لأغلب تلك الجهات احتلالًا فعليًا وعلى الأخص ما علمناه وهو مما يدهش ويحزن أن فريقًا من العرب القاطنين في تلك الجهات نفسها قد غفل وأهمل هذه الفرصة الثمينة التي ليس أعظم منها، وبدل إقدام ذلك الفريق على مساعدتنا نراه قد مد يد المساعدة إلى الألمان، نعم مد يد المساعدة لذلك السلاب النهاب الجديد وهو الألمان والظالم العسوف وهو الأتراك".**

بهذا التحويل في الموضوع يوظِّف مكماهون في الوقت نفسه وسيلة من الوسائل البارزة في الخطاب التفاوضي. إن أطراف التفاوض يعملون على وضع تعريفات جديدة

[١]- عبد العزيز بن سعود: حاكم نجد آنذاك، ومؤسس المملكة العربية السعودية، توفي ١٩٥٣م.
٢- محمد بن علي الإدريسي: مؤسس الإمارة الإدريسية في عسير، توفي ١٩٢٠م.
[3]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, pp. 68, 69.

للقضايا وجدول أعمال التفاوض، وإعادة تأطيرها، بما يغير تعريف المشكلة ونتائج النقاش. يشمل هذا التغيير طرق تسمية القضايا، واستكشاف أسبابها، وتقرير ما يجب فعله حيالها[1]. وهنا يستدعي مكماهون عنصرين من الخلفية السياقية لمطالب الحسين هما الحرب العالمية الدائرة والاحتلال التركي القائم، مبررًا تأجيل البحث بمواجهة العدو الألماني التركي ومعاونيه، ومانحًا تلك المواجهة أولوية في النقاش والتحرك.

أما بقية المطالب مجتمعةً – بخلاف الاستقلال – فقد صمت عنها مكماهون تمامًا ما تدرجه دراسة بي بي وزميليها ضمن آليات التهرب غير اللفظي.

يجدر بالذكر إشارة قدوري إلى أن مشاورات الحكومة البريطانية قد التفتت إلى كون الرد على المقترحات المحددة من قِبَل الحسين بحديث عام سيبعده عن الاشتراك في القضية البريطانية، كما قد ينمي لديه اعتقادًا بأن بريطانيا ليست جادة في انفتاحها تجاهه. واقتُرِح في المشاورات دعوته لإرسال مندوب عنه للتفاوض، لكن مكماهون – الذي تُرك له الرأي الأخير – استبعد هذا الاقتراح؛ بحجة أن فرص الحسين في إعلان الخلافة قد تتضرر في هذه المرحلة إذا أعلن عن تعامله مع بريطانيا[2].

وبهذا، وعلى الرغم من تفصيل الحسين مطالبه وتفنيده إياها في نقاط ضمن صيغة الطلب الموحدة، فقد أغفل مكماهون الرد على أهمها، بلجوئه إلى تقديم ردٍ عام على مذكرة الحسين في مجملها دون تفصيل بنودها.

هذا التسلسل لآليات الرفض غير المباشر يجعل القبول المبدئي المصرح به مندرجًا فعليًا – من وجهة النظر التداولية – ضمن ما يُعَدُّ قبولًا بمثابة الرفض، وهو مصنف بحد ذاته وسيلةً من وسائل الرفض، وهذا على الرغم من محاولات المفاوِض البريطاني صيانة وجه بريطانيا الإيجابي/التضامني عبر تصريحه بتضامنها مع الحقوق العربية: "... **وأن مصالح العرب هي نفس مصالح الإنجليز والعكس بالعكس**"، وانخراطه في التسليم الشكلي ببعض قيم مخاطبه (الحسين) العقدية والتاريخية، في مثل تعبيرات: "**الخلافة العربية**"، و"**للبلاد العربية المقدسة**"، و"... **سائلين الله سبحانه وتعالى دوام حسن العلائق بيننا**"،

[1]- Putnam, Linda L. "Negotiation and discourse analysis." *Negotiation journal 26*, no. 2 (2010), pp. 147, 148.
[2]- Ibid., p. 69.

ما يجعل مثل هذه الصيغ الدلالية تُفهَم هنا بوصفها من وسائل الرفض الملحقة.

عبر جورج أنطونيوس عن التناقض في هذه الرسالة بقوله إنها حاولت الجمع بين أمرين متناقضين، هما: اكتساب الحسين للدخول في تحالف فعَّال، وفي الوقت نفسه منعه من الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يجعل هذا التحالف فعَّالًا[١].

من اللافت أن سياسة المراوغة هذه انعكست على مقاربات مكماهون لوجه مخاطبه، فهو لم يكتف بتهديد الوجه السلبي للحسين الذي تسبب فيه إعاقة مطالبه الأساسية، لكنه أضاف إليه طعنًا في حقيقة التمثيل الذي يدعيه الحسين للعرب بأسرهم وجمع كلمتهم، بإشارته إلى العرب المعاونين للألمان والأتراك، وكأنه يقول له: اذهب وسيطر على من تدعي تمثيلهم أولًا، مهددًا بذلك كلًا من وجهي الحسين: السلبي بالانتقاص من قدره، والإيجابي بالانتقاص من كفاءته في التحالف مع بريطانيا.

لكن المفارقة تكمن في استغراق مكماهون في عبارات الثناء والمديح التي يكيلها بادئ ذي بدء للحسين نفسه ولنسبه ومكانته الدينية، وهي عبارات يرجح أنطونيوس أن أحد موظفي مكماهون كتبها ظنًا منه أنها لائقة بالمقام[٢]. فبدت في الرسالة مراوحة محيرة بين صيانة وجه المخاطَب السلبي الشخصي، وتهديد وجهه السلبي الرسمي، أو ما يمكن فهمه بوصفه إنكارًا ضمنيًا لأحقية الشريف الحسين في تمثيل العرب وحكمهم. هذا التناقض يعزوه أنطونيوس إلى أن مكماهون ومستشاريه لم يكونوا آنذاك يعرفون شيئًا عن تحالفات الحسين والجمعيات المؤيدة له، وكانوا يعتقدون بالفعل أنه لا يمثل إلا نفسه، ولا يسعى إلا إلى أهدافه الشخصية[٣].

وقد عضد إنكارُ أحقيةِ الحسين في تمثيل العرب بدوره الرفضَ الضمنيَ لمطلبَي الخلافة والاستقلال اللذين عبر مكماهون – ظاهريًا – عن تضامن بريطانيا معهما، فلا هي وافقت في الحقيقة على حدود الدولة المطلوبة ولا اعترفت بوحدة شعبها ولا بالحاكم المقترح لها، وهو ما يفرغ قبولها الخلافة والاستقلال من أي مضمون عملي، ويعني بشكل ما أنها لم تأخذ رسالة الحسين الأولى ومطالبه فيها على محمل الجد، بل كان غرضها

[١]- جورج أنطونيوس: "يقظة العرب"، صـ٢٥٤.
[٢]- السابق، صـ٢٥٥.
[٣]- السابق، صـ ٢٥٤.

الأساسي استدعاء السياق الخلفي المتمثل في حربها ضد الألمان والأتراك إلى واجهة الخطاب.

- **الرسالة الثالثة (١٩١٥/٩/٩م – ٢٩ شوال ١٣٣٣هـ):**

يخلق رفض الطلب عقبات تعوق رغبات مقدمه، فتهديد وجهه السلبي أصيل في فعل الرفض؛ ومن ثم فهو يرتبط إيجابًا في معظم الأحوال برغبة صاحب الطلب في الإلحاح؛ لتوفير طرق بديلة يحقق بها رغباته. كذلك فإن رفض الطلب حين يقترن بتهديد الوجه الإيجابي لمقدمه يرتبط إيجابًا أيضًا بالرغبة في الإلحاح؛ فقد يكون هذا الإلحاح وسيلة لإعادة الاعتبار إذا نجح في نيل الموافقة؛ كما أن تقديم عروض ووعود وأسباب إضافية يعد وسيلة دارجة لمعالجة تهديدات الوجه الإيجابي[1].

بأخذ هذا بالحسبان يتضح أنه لم يكن من الصعب على كفاءة الشريف الحسين التداولية إدراك مراوغات مكماهون ورفضه غير المباشر للمطالب العربية، فقد عبر تعبيرًا صريحًا – وإن كان ملطفًا – عن استيائه من الغموض والبرود والتردد في الرد بقوله:

- **"بمزيد من السرور والغبطة تلقيت كتابكم المؤرخ في ١٩ شوال وطالعته بكل احترام واعتبار رغم شعوري بغموضه وبرودته وتردده فيما يتعلق بنقطتنا الأساسية، أعني نقطة الحدود".**
- **"ويعذرني فخامته إذا قلت إن هذا كله يدل على عدم الرضا أو على النفور أو على شيء من هذا القبيل".**

وإلى جانب التعبير الصريح انعكس في إلحاحه في الطلب محاولات صيانة وجهه السلبي بشقيه الشخصي والرسمي، هذه المرة عبر آليتين هما: النص على وجود أسباب الفعل وتفصيلها وليس السؤال عن رغبة المخاطَب في أدائه – بخلاف رسالته السابقة –، والنص على تحقق شرط الإخلاص مع الحرص مجددًا على إسناده إلى الشعب العربي أو نسبته إليه بالإضافة لا إلى شخص الحسين، مع تأكيد تحقق إجماعه مِرارًا وبطرق لغوية شتى منها الخبر ("وهو متفق") والفعل ("أجمع"– "يجمعون") والحال ("بأجمعه"– "بأسره")،

1- Johnson, Danette Ifert, Michael E. Roloff, and Melissa A. Riffee. "Responses to refusals of requests: Face threat and persistence, persuasion and forgiving statements." *Communication Quarterly* 52, no. 4 (2004), pp. 349- 351.

والتوكيد ("كلها"):

- **"ويجب أن أؤكد لكم أيضًا أن مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم".**
- **"فإن هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد نتمكن من إرضائه ومفاوضته بعد الحرب بل هي مطالب شعب يعتقد أن حياته في هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد.**

وهذا ما جعل الشعب يعتقد أنه من الضروري البحث في هذه النقطة قبل كل شيء مع الدولة التي يثقون بها كل الثقة ويعلقون عليها كل الآمال وهي بريطانيا العظمى".

- **"وإذا أجمع هؤلاء على ذلك فإنما يجمعون عليه في سبيل الصالح المشترك. وهم يرون أنه من الضروري جدًا أن يتم تنظيم الأراضي المجزأة، ليعرفوا على أي أساس يؤسسون حياتهم كي لا تعارضهم إنجلترا أو إحدى حليفاتها في هذا الموضوع مما يؤدى إلى نتيجة معاكسة، الأمر الذي حرمه الله.**

وفوق هذا فإن العرب لم يطلبوا – في تلك الحدود – مناطق يقطنها شعب أجنبي".

- **"وأنا على ثقة يا صاحب الفخامة، أنكم لا تشكون قط بأني لست أنا شخصيًا الذي يطلب تلك الحدود التي يقطنها عرب مثلنا، بل هي مقترحات شعب بأسره، يعتقد بأنها ضرورية لتأمين حياته الاقتصادية".**

جدير بالملاحظة أن الحسين يحاول في الوقت ذاته – مع محاولة صيانة وجهه السلبي – أن يستعيد ماء وجهه الإيجابي الذي أراقه رفض المطالب أو تجاهلها، محاولات حدت به إلى بعض المبالغة والإسراف في التعبير عن الاندماج القائم بين المصالح العربية والبريطانية، إلى حد اعتباره أي خلاف محتمل بينهما مما "حرمه الله".

وهو إسراف يفهم منه في بعض الأحيان حصول الانقياد التام للرغائب البريطانية أيًا كانت، حيث ورد في هيئة عدد من الأفعال الإنجازية الإخبارية الأدائية وغير الأدائية، التي تطابق فيها الكلمات جانبًا متحققًا سلفًا من العالم، مع النص غالبًا على تحقق شرط الإخلاص مبالغة في التعبير عن حسن النوايا، ما يوحي بالولاء التام، كما في:

- **"وأرى من الضروري أن أؤكد لسعادتكم إخلاصنا نحو بريطانيا العظمى واعتقادنا بضرورة تفضيلها على الجميع في كل الشؤون وفي أي شكل وفي أية ظروف".**
- **"فإننا ثابتون في إخلاصنا نصرح بكل تأكيد بتفضيلنا لكم على الجميع أكنتم راضين عنا – كما قيل – أو غاضبين".**
- **"وأود هنا يا صاحب الفخامة أن أؤكد لكم بصراحة أن كل الشعب – ومن جملته هؤلاء الذين تقولون إنهم يعملون لصالح تركيا وألمانيا – ينتظر بفارغ الصبر نتائج هذه المفاوضات المتوقفة على موافقتكم أو رفضكم قضية الحدود، وقضية المحافظة على ديانتهم، وحمايتهم من كل أذى أو خطر.**

وكل ما تجده الحكومة البريطانية موافقاً لسياستها، في هذا الموضوع، فما عليها إلا أن تعلمنا به وأن تدلنا على الطريق التي يجب أن نسلكها".

- **"ولست أرى حاجة هنا لأن ألفت نظركم إلى أن خطتنا هي آمن على مصالح إنجلترا من خطة إنجلترا على مصالحنا".**

الواقع أن هذا الإسراف في إظهار الحالة التعاونية شكَّل ما يُعَدّ ثغرة في خطاب الحسين استدعت مزيدًا من المساومة، وتركت الباب مفتوحًا أمام العدول عن المطالب الجوهرية وتركت قرار مسألة الحدود بالكامل "بين يدي بريطانيا"[1].

عمد الحسين إلى تحديد بعض المناطق المتوقع النزاع حولها بدقة، لكنه على الرغم من ذلك لم يتقدم بهذا التحديد بصيغ قطعية صارمة، بل بصيغ مستقبلية تحتفظ له بحق الطلب، في محاولة منه لإظهار التعاون:

- **"ولذلك نرى أن من واجبنا أن نؤكد لكم أننا سنطلب إليكم في أول فرصة بعد انتهاء الحرب ما ندعه الآن لفرنسا في بيروت وسواحلها".**

واستبق الطلب المفصل هذه المرة بإبداء الأسباب والعواقب تحاشيًا للرفض، أو ما يمكن عده رفضًا للرفض الضمني السابق، وللرفض الصريح المتوقع:

- **"ونعتقد أن وجود هؤلاء الجيران في المستقبل سيقلق أفكارنا كما يقلق أفكارها"، يعني الفرنسيين.**

---

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, p. 72.

وقد عبَّر عن رفض الرفض هذا بفعل أدائي مباشر، مسند كالعادة إلى الشعب نفسه عبر صيغة الغائب، ومصحوب بالتحذير من العواقب، ثم بصيغة غير أدائية بنفي إمكانية الحدوث:

- **وفوق هذا فإن الشعب البيروتي لا يرضى قط بهذا الابتعاد والانزواء وقد يضطرونا لاتخاذ تدابير جديدة قد يكون من شأنها خلق متاعب جديدة، تفوق في صعوبتها المتاعب الحاضرة.**

وعلى هذا لا يمكن السماح لفرنسا بالاستيلاء على قطعة صغيرة من تلك المنطقة".

تنبغي الإشارة إلى أن سؤالًا جوهريًا يفرض العودة إلى هذه الرسالة عند تحليل الرسائل التالية؛ فعلى الرغم من انتباه الحسين إلى مواطن النزاع المحتملة، وتحديده الصريح لبيروت في هذه الرسالة – حتى دون أن يذكرها مكماهون –، ولبعض المناطق العراقية في رسائل أخرى، يثير الحيرة سكوته عن أي ذكر صريح لفلسطين في مطالبه وهي التي أصبحت نقطة الخلاف الأساسية في تفسير الرسائل بين العرب والإنجليز؛ فليس لفلسطين أي ذكر في الرسائل إلا ما يفهم ضرورةً عن طريق اللزوم المنطقي entailment من الحدود التي طلبها بدايةً في رسالته الأولى، وضمنًا عن طريق الاستلزام الحواري implicature[1] من قوله شديد العموم في هذه الرسالة بأن "مصالح أتباع ديانتنا كلها تتطلب الحدود التي ذكرتها لكم".

---

[1]- المصطلح الأجنبي entailment يدل على علاقة منطقية بين القضايا، تعني أن القضية الحرفية في الجملة حين تكون صحيحة تستلزم بالضرورة أن تكون قضية أخرى غير مذكورة حرفيًا صحيحة بدورها، وهي تعتمد على معنى الجملة نفسها بغض النظر عن اختلاف السياق.

(Cruse, Alan. *A glossary of semantics and pragmatics*. Edinburgh University Press, 2006, p.55)

أما مصطلح implicature فيدل على أجزاء من معاني المنطوق، مقصودة لكنها ليست جزءًا أصيلًا فيما قيل بالفعل، ولا هو يقتضيها منطقيًا. ومنها ما هو عُرفي conventional له ارتباط ثابت بتعبيرات لغوية معينة، وما هو حواري conversational ينبغي استنتاجه من المعلومات السياقية.

(Cruse, Alan. *A glossary of semantics and pragmatics*, p.85)

تشهد الترجمة العربية للمصطلحين لبسًا واختلافًا كبيرين، ما بين "الاستلزام" و"الاقتضاء" و"اللزوم" و"التضمين" و"المضمر" و"المفهوم"... . لكن الشائع في ترجمة conversational implicature – وهو مفهوم جرايس – مصطلح "الاستلزام الحواري"؛ لذلك التزمت به هذه الدراسة على الرغم من أنه غير دقيق تمامًا؛ إذ يُقصَد به الدلالة على معنى غير لزومي ومن سماته قابلية الإلغاء. أما entailment فقد استخدَمت الدراسة في ترجمته "اللزوم المنطقي"؛ لأنه يُفهم بالضرورة من لفظ العبارة.

وهذا على الرغم من كون فلسطين في ذلك الوقت موضع أطماع فرنسية- إنجليزية، وعلى الرغم من نشاط الحركة الصهيونية العالمية منذ القرن التاسع عشر. فهل كان الحسين يَعُدُّ فلسطين حقًا عربيًا جليًا لا يستدعي حاجةً للنقاش، أم لم يكن يأخذ نزاع القوى حولها بشكل جدي، أم أنه توقع خلافًا حادًا في التفاوض إن هو ذكرها فآثر أن يُسقِط تحديدها في مطالبه عمدًا، آملًا أن يحصل على وعود غير محددة بدورها يستطيع تأويلها بما يفيد مصالحه وقت الحاجة؟ لعله مما يدعم الاحتمال الأخير ملاحظة جورج أنطونيوس حول الأسلوب الحذر الذي تتسم به رسائل الحسين، والذي كان قد ثقفه بحكم تجربته في القسطنطينية أثناء حكم السلطان عبد الحميد "حينما كان لا بد للمرء من أن يلجأ إلى الحذر إذا ما اضطر إلى التعبير عن آرائه، فيعبر عنها بأسلوب مبهم غير مفهوم"[1].

- **الرسالة الرابعة (١٩١٥/١٠/٢٤م - ١٥ ذي الحجة ١٣٣٣هـ):**

تعد هذه الرسالة الرابعة (جواب مكماهون الثاني) أهم وثيقة تاريخية ضمن المكاتبات العشرة؛ فقد اشتملت على العهود التي دعت العرب إلى إعلان اشتراكهم في الحرب إلى جانب بريطانيا وحلفائها، وقد أصبحت خلال السنوات التي أعقبت الحرب مثارًا للنزاع، وهي الوثيقة الرئيسة التي استدل بها العرب في اتهام بريطانيا بنقض عهودها معهم[2].

إن إدراك الحسين كلًا من الرفض الضمني لمطالبه وتهديد وجهيه السلبي والإيجابي في الرد البريطاني السابق، اضطر مكماهون إلى التعبير عن أسفه لما عدَّه مجرد استنتاج من الحسين:

- **"إني متأسف أنكم استنتجتم من عبارة كتابي السابق أني قابلت مسألة الحدود والتخوم بالتردد والفتور، فإن ذلك لم يكن القصد من كتابي قط".**

كما دفعه ذلك إلى الحرص في رده الثاني على التخفيف الظاهري من تهديد الأوجه الأربعة في عملية التفاوض: وجهي المتلقي السلبي والإيجابي، ووجهي المرسِل نفسه السلبي والإيجابي.

من أجل صيانة وجه المتلقي السلبي واصل مكماهون حشده المعتاد لألفاظ المديح والثناء والدعاء والأفعال التعبيرية المرتبطة بالتحية والمحبة في بداية رسالته ونهايتها:

---

[1]- جورج أنطونيوس: "يقظة العرب"، صـ٢٥٥.
[2]- السابق، صـ٢٥٩.

- **"إلى فرع الدوحة المحمدية وسلالة النسل النبوي الحسيب النسيب دولة صاحب المقام الرفيع الأمير المعظم السيد الشريف ابن الشريف أمير مكة المكرمة صاحب السدة العلياء جعله الله حرزًا منيعًا للإسلام والمسلمين...".**
- **"وفي الختام أبث دولة الشريف ذا الحسب المنيف والأمير الجليل كامل تحيتي وخالص مودتي وأعرب عن محبتي له ولجميع أفراد أسرته الكريمة".**

ومن أجل صيانة وجه المتلقي الإيجابي، وكي لا يُشْعِر الحسينَ بمزيد من تهديده، ولضمان بريطانيا في الوقت نفسه عدم تورطها في تعهدات لا ترغب بها، اضطر مكماهون في رده إلى الخوض في التفاصيل، لكن مع الحرص على **تمويه أجوبته،** بتوظيف الوسائل التداولية في الرفض وتنويعها.

لقد اعتيد القول بأن وسائل الرفض غير المباشر تهدف إلى التأدب، لكنها – على تنوعها – لا تؤدي هذا الهدف بالطريقة نفسها، كما أن الرفض غير الأدائي الذي يُصَنَّف رفضًا مباشِرًا قد يكون له أيضًا دور تأدبي أو تلطيفي، وفي بعض الأحيان دور مراوغ إذا ساندته عناصر مراوِغة أخرى.

فمثلًا اللجوء إلى التعبير عن انعدام إمكانية الفعل يعزو الرفض إلى طبيعة الأشياء وحقائق وجودها، لا إلى موقف الطرف الرافض ورغباته، ما يبرئه من محاولته تهديد وجه مخاطَبه من ناحية، ويُخفض من احتمالية الإلحاح من ناحية أخرى؛ فلا يمكن منطقيًا معارضة طبيعة الأشياء. من ذلك قول مكماهون:

- **"إن ولايتي مرسين وإسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة في الجهة الغربية لولايات دمشق الشام وحمص وحماة وحلب لا يمكن أن يقال إنها عربية محضة، وعليه يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة".**

فعلى الرغم من صيغة الرفض المباشر غير الأدائي في هذا المقتبس السابق، فإن ما يرفضه مكماهون بالضبط غير محدَّد. إن عبارة "**أجزاء** من بلاد الشام الواقعة في **الجهة الغربية لولايات** دمشق الشام وحمص وحماة وحلب" تعد الإشكالية الكبرى في نصوص الرسائل العشرة، وأكثر ما شهد شدًّا وجذبًا في التأويل بين العرب والإنجليز حول وضع فلسطين؛ إذ تبين في مؤتمر لندن ١٩٣٩ الذي نظمته بريطانيا للتداول حول القضية الفلسطينية أن هذه العبارة – بنص تعبير ممثلي الوفد البريطاني – "لها من القوة أكثر مما

كان يبدو من قبل"[١].

لم يختلف المندوبون العرب والإنجليز في أن فلسطين كانت داخلة ضمن المنطقة التي طالب بها الحسين للدولة العربية في رسالته الأولى. لكن الوفد العربي تمسك بأن تحفظات مكماهون هنا كانت تقتصر على المناطق الساحلية من سوريا الشمالية، في حين تمسك البريطانيون بأن هذه العبارة تُخرِج سوريا الجنوبية وبيروت ولواء القدس ("سنجق القدس") – بحسب التقسيم الإداري العثماني –، وأن المقصود هو غربي الحد الممتد من كيليكيا (قيليقية، جنوب الأناضول) على خليج العقبة، وإن كانوا مع ذلك يُقِرون بأن العبارة التي تضمنت هذا الاستثناء "لم تكن محددة صريحة ولا غير قابلة للخطأ كما ظُنَ في وقتها"[٢].

إن عدم التحديد في العبارة وقابليتها لأكثر من تأويل يعنيان بالمصطلحات التداولية أن العبارة **تخرق قاعدة الطريقة**، القاعدة الرابعة في مبدأ التعاون لجرايس، فهي تمثل ما يُعرَف بالمصطلحات المنطقية بـ"مغالطة التباس المبنى" أو "اشتراك التركيب" أو "الغموض التركيبي" Amphiboly، وهي مغالطة تنتج عن تفكك مبنى العبارة وتعثر الطريقة التي تتضام بها ألفاظها، بحيث تكون قابلة بسبب تركيبها لأكثر من تفسير واحد، وقد تكون صادقة وفقًا لتأويل معين وكاذبة وفقًا لتأويل آخر[٣].

ينبع هذا الغموض أو الالتباس من عدة عناصر داخل العبارة، منها التنكير في كلمة "أجزاء"؛ فإن التنكير دلاليًا قد يفيد العموم أي عدم التحديد، وقد يفيد التكثير أو التقليل فيما يحيل إليه اللفظ، لكنه لا يفيد الشمول. وهذا ما يفتح الباب لتأويل الـ"أجزاء" المقصودة – مهما قلت أو كثرت – في ضوء كفاءة المتلقي التواصلية ومقدار معلوماته السياقية؛ لهذا فسرها أعضاء الوفد الإنجليزي في ضوء قيد – لاحق ذكره – متعلق بمراعاة المصالح الفرنسية المتفق عليها، وهو ما صرح كلايتُن Gilbert Clayton[٤] مساعد مكماهون بأنه كان المقصود. أما أعضاء الوفد العربي فقد فهموا أن بريطانيا لا تعترف

١- تقرير اللجنة المؤلفة لدرس مراسلات حسين- مكماهون في مؤتمر لندن ١٩٣٩، من الموقع الإلكتروني لمؤسسة الدراسات الفلسطينية:www.palestine-studies.org .

٢- المرجع السابق.

٣- عادل مصطفى: المغالطات المنطقية- طبيعتنا الثانية وخيزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصوري)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧، صـ١٩٩.

٤- ضابط مخابرات بريطاني، كان من ضمن مهامه الإشراف على المقاتلين العرب المنضمين إلى الثورة ضد العثمانيين، توفي ١٩٢٩م.

لفرنسا إلا بأجزاء من سوريا الشمالية وفقًا لقراءتهم التحفظ في ضوء الموقف المعلن الذي كانت تتخذه وزارة الخارجية البريطانية آنذاك – على حد تعبيرهم الرسمي[١] –.

عنصر آخر يسبب الغموض والالتباس في العبارة يكمن في تحديد المساحة الجغرافية المقصودة من قيد "الجهة الغربية". إن كلا التأويلين السابق ذكرهما للمنطقة المقصودة من تحفظ مكماهون (سواحل سوريا الشمالية في التأويل العربي، وسوريا الجنوبية وبيروت ولواء القدس في التأويل البريطاني) غير مصرح بهما في نص العبارة على الإطلاق. أحدهما يدور حول الشمال والآخر حول الجنوب، في حين أن نص العبارة لا يذكر سوى الغرب.

المعنى المباشر لنص العبارة هو الغرب الممتد على خطوط عرض المدن الأربعة المحددة نفسها، وهو ما يعني تقريبًا – بالنظر إلى الخارطة – منطقة بيروت وما فوقها، أما النية الإنجليزية كما حددها ممثلو بريطانيا فهي غربي الحد الممتد – طوليًا – من كيليكيا إلى خليج العقبة. وهو ما يَسِم عبارة مكماهون بخرق آخر لمبدأ التعاون يمس **قاعدة الكم**، وليس فقط قاعدة الطريقة؛ إذ أغفلت التحديد الطولي للمناطق المتحَفَّظ عليها إغفالًا تامًا على الرغم من كونها محددة على هذا النحو الدقيق لدى السياسيين البريطانيين.

لكن يبدو أن عنصرًا ثالثًا أسهم أيضًا في هذا الالتباس – ربما عند مكماهون نفسه – يكمن هذه المرة في لفظ "ولايات"؛ فبحسب التقسيم الإداري العثماني لم يكن ثمة شيء اسمه "ولاية دمشق"، و"ولاية حمص"، و"ولاية حماة"، بل كان يضم الثلاثة ولاية واحدة هي "ولاية سورية"[٢]. ومن ثم فإن عبارة مكماهون لا تدل على أي معنى إلا إذا فَهِمَت الكلمة على أنها تعني "مناطق"[٣].

يزعم إيلي قدوري أن كلمة "ولاية" (wilāya) في العامية العربية يمكن أن تعني بلدة/مدينة (town)، ويستدل على هذا بأن الحسين نفسه استخدم الكلمة لوصف مدينة

١- تقرير اللجنة المؤلفة لدرس مراسلات حسين- مكماهون في مؤتمر لندن ١٩٣٩.
٢- جورج أنطونيوس: "يقظة العرب"، صـ٢٦٨.
٣- السابق، صـ٢٦٩.

مرسين في رسالة تالية (١٩١٥/١١/٥)[1]، لكن هذا لا ينفي أن ما قصده مكماهون بـ"ولايات دمشق الشام وحمص وحماة" يبقى غير ذي دلالة محددة، سواء كان هذا الغموض مقصودًا أو ناجمًا عن سوء ترجمة بين الإنجليزية والعربية لدى مكماهون وفريقه، وحتى مع انخراط الحسين فيه وتسليمه بهذا الاستعمال للكلمة؛ فالابتعاد عن الاصطلاح الرسمي للكلمة يعني أنه لا حدود رسمية تُعَيِّن أين تبدأ المساحة الجغرافية المقصودة، وأين تنتهي، وما يقع غربها أو شرقها أو شمالها أو جنوبها.

من وسائل الرفض غير المباشر المتجلية في هذه الرسالة الرفض بالتعبير عن مبدأ. يكتسب الرفض بالتعبير عن مبدأ طابعًا أخلاقيًا مما يحرج صاحب الطلب ويدفعه إلى الانصياع للرفض، وإلا أهدر ماء وجهه السلبي. وهذا ما حاول مكماهون فعله في استناده على مبدأي احترام مصالح الحلفاء، واحترام المعاهدات، يقول:

- **"وأما من خصوص الأقاليم التي تضمها تلك الحدود حيث بريطانيا العظمى مطلقة التصرف بدون أن تمس مصالح حليفتها فرنسا فإني مفوض من قبل حكومة بريطانيا العظمى أن أقدم المواثيق الآتية".**
- **"مع هذا التعديل وبدون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين بعض رؤساء العرب نحن نقبل تلك الحدود".**

يَرِد تبني هذين المبدأين في حد ذاته كأنه حجة وافية ونهائية لا تحتاج إلى تفسير ولا تحتمل نقاشًا، على الرغم من أن ما يستبعده تمامًا مما تقبله بريطانيا وتقدم المواثيق بشأنه غير واضح، وكأن تحديده تُرِك عمدًا لتأويلات الحسين، الذي لم يدرك بالنهاية مقدار المصالح الفرنسية، إلى جانب استنتاجه اقتصار المعاهدات المقصودة على بعض مناطق العراق كما يتضح من جوابه التالي.

أما الرفض عبر اقتراح البديل فيقلل من تهديد الوجه الإيجابي لكلٍ من صاحب

---

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, p. 101.

والغالب أن هذا الاستعمال من الحسين لم يكن سوى تأثر باللبس السابق في استعمال الكلمة خلال الرسائل؛ فالاستعمال الأوسع انتشارًا وتداولًا لكلمة "ولاية" لدى أبناء العربية بمختلف لهجاتها وفي عدة مجالات (فقهية وقانونية واجتماعية وسياسية تاريخية) يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالجوانب السلطوية في دلالتها المُنصبة على جهة الحُكم أو المُلك أو أحقية التصرف في الأمر، وليس الجانب المكاني، حتى إنها تنتقل في بعض الاستعمالات إلى الدلالة الزمنية ("فترة ولاية فلان") أكثر من انتقالها إلى الدلالة المكانية.

الطلب ورافضه؛ فهو يوحي بأن الطرف الرافض لا يرفض التعاون مع مخاطَبه بالمطلق، بل يهتم بمصلحته ويعرض عليه أفضل ما يمكن نَيْله، وهو ما يرفع من احتمال تراجعه عن طلبه الأساسي. وعمد إليه مكماهون في:

- **"أن بريطانيا العظمى تضمن الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجي وتعترف بوجوب منع التعدي عليها".**

ليس من السهل إدراك الرفض الضمني في مثل هذه العبارة – وهو بالفعل ما لم يحدث –. لقد اعتمد مكماهون في صوغها على وسيلتي اللزوم المنطقي entailment والاستلزام الحواري implicature، فوضع المعنى الذي يريد للحسين أن يفهمه لزومًا عبر علاقة اشتمال بقوله "الأماكن المقدسة"، فهو يعني بالضرورة أن بريطانيا تضمن موضع المسجد الحرام، وتضمن موضع المسجد النبوي، وتضمن موضع المسجد الأقصى. هذا اللزوم المنطقي فهمه الحسين وفيما بعد مفاوضو الوفد العربي؛ فقد استدلوا بهذا المقتبس "لإثبات أن مكماهون كان يفكر في فلسطين ويعنيها حين قطع العهود البريطانية للشريف الحسين"[١].

لكن ما لم يدركه المؤولون العرب، وما منح ذريعة التنصل للبريطانيين هو أن مكماهون في الواقع قدم اقتراحًا بديلًا للطلب العربي عن طريق استلزام حواري لا يُفهَم إلا عبر سلسلة من الاستدلالات المتعلقة بالمعلومات السياقية وطريقة تأطيرها، علاوة على أنه يمكن ببساطة إلغاؤه صراحةً بالامتناع عن التعاون، أو سياقًا بإعادة وضع المنطوق في سياق يُبطِل التعاون[٢]. يؤدي هذا الاستلزام الحواري من جديد إلى ما يمكن عده مغالطة التباس؛ فلفظ "تَضْمَن" لا يعني في لغة السياسة اعترافًا بالاستقلال، كما أن تعبير "اعتداء خارجي" يتوقف فهمه على تفسير كلٍ من الممارسة التي تعدها الحكومة البريطانية "اعتداءً"، والطرف الذي تعده "خارجيًا"، وهو ما يوقع مُفَسِّر الخطاب – ومحلله – في شَرَكٍ تاريخي وعالمي عميق من السجال حول الهويات العِرقية والدينية، والادعاءات حول حق امتلاك الأرض والوجود التاريخي، وشرعية فرض "الحماية" و"الانتداب" بحد ذاتها. وهو الشَرَك الذي فتحه ممثلو بريطانيا في مؤتمر لندن بالفعل، فجاء نص ردهم: "كانت

١- تقرير اللجنة المؤلفة لدرس مراسلات حسين- مكماهون في مؤتمر لندن ١٩٣٩.

2- Grice, H. P. *Studies in the Way of Words*, p. 39.

فلسطين في مركز خاص جدًا في الوقت الذي دارت فيه المكاتبات نظرًا لكونها بلادًا مقدسة لديانات ثلاث كبرى، ولاهتمام المسيحيين والمسلمين واليهود بها في العالم كله، ولكثرة عدد المباني الدينية وغيرها فيها، والمعاهد التابعة لغير العرب، وللمصالح العملية الواضحة لبريطانيا العظمى في بلاد مثلها مجاورة لمصر وقناة السويس. ويذهب مندوبو المملكة المتحدة أيضًا إلى أن فلسطين ليست بلادًا عربية صرفًا"[1].

وأما الرفض عن طريق التأجيل فهو يحمل رسالة مفادها أن الطلب المقصود ليس ذا أولوية كما يبدو لصاحبه، ما قد يدفعه إلى إعادة النظر فيه، ويمهد للرافض الطريق لرفع قضية أخرى إلى مقدمة الأولويات، أو على الأقل يُكسبه فسحة من الوقت للتفكير وقراءة الأحداث المستجدة، كما في:

- **"ولقد اقتصرت في كتابي هذا على المسائل الحيوية ذات الأهمية الكبرى وإن كان هناك مسائل في خطاباتكم لم تذكر هنا فسنعود إلى البحث فيها في وقت مناسب في المستقبل".**

ويأتي – مرة أخرى – بعد تنوع وسائل الرفض، الوسيلة الأكثر مراوغة، القبول الذي يعد بمثابة الرفض، ليخبر مكماهون عن قبول وتوافق ظاهريين بعد إفراغ المطالب من مضمونها:

- **"أنه مع مراعاة التعديلات المذكورة أعلاه فبريطانيا العظمى مستعدة بأن تعترف باستقلال العرب وتؤيد ذلك الاستقلال في جميع الأقاليم الداخلة في الحدود التي يطلبها دولة شريف مكة".**

ليس **تمويه الرفض** السمة الوحيدة في رد مكماهون الثاني خلال مراسلات التفاوض، بل تظهر فيه بجلاء سمة أخرى يمكن تسميتها **لبس الطلب بالاستجابة.**

لقد عمد مكماهون في رده الأول إلى تهديد وجهي الحسين السلبي والإيجابي، فدفعه بذلك إلى المبالغة في محاولة إزالة ذلك التهديد بالإسهاب في تبرير مطالبه والغلو في إظهار الولاء لبريطانيا، ومن ثم استغل في رده الثاني هذه المبالغات، ليقدم بدوره المطالب البريطانية، لكن في مناورة تجعلها تبدو كأنها استجابة للمطالب العربية نفسها أو نتيجة

[1]- تقرير اللجنة المؤلفة لدرس مراسلات حسين- مكماهون في مؤتمر لندن ١٩٣٩.

تلقائية لها، غير أنها في الواقع مطالب لم يطلبها الحسين قط:

- **"هذا وإن المفهوم أن العرب قد قرروا طلب نصائح وإرشادات بريطانيا العظمى وحدها وأن المستشارين والموظفين الأوروبيين اللازمين لتشكيل هيئة إدارية قويمة يكونون من الإنجليز".**
- **"أما من خصوص ولايتي بغداد والبصرة فإن العرب تعترف أن مركز ومصالح بريطانيا العظمى الموطدة هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية مخصوصة لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي وزيادة خير سكانها وحماية مصالحنا الاقتصادية المتبادلة".**
- **"وإني متيقن أن هذا التصريح يؤكد لدولتكم بدون أقل ارتياب ميل بريطانيا العظمى نحو رغائب أصحابها العرب وتنتهي بعقد محالفة دائمة ثابتة معهم ويكون من نتائجها المستعجلة طرد الأتراك من بلاد العرب وتحرير الشعوب العربية من نير الأتراك الذي أثقل كاهلهم السنين الطوال".**

ينبغي هنا ملاحظة أن هذه المقتبسات الثلاثة وردت تحت اسم "**مواثيق**" يقدمها مكماهون بالتفويض من حكومة بريطانيا، وهي في حقيقتها إما أفعالٌ توجيهية مبطنة يُنتَظَر أداؤها من المخاطَب وليست التزامًا من المخاطِب، وإما أفعالٌ إخبارية تعبر عن واقع سابق وليست عملًا مستقبليًا.

يحمل المقتبسان الأول والثاني منها طلبًا معكوسًا مفاده إطلاق يد بريطانيا في مناطق الدولة العربية المفترَضة، وظف فيه مكماهون فعلًا إخباريًا أوليًا (primary) يبدو كأنه نقل لوقائع – أي مطابقة من الكلمات للعالم –، لكنه يفتقد حقيقة شرط الإخلاص المتمثل في صدق الاعتقاد، وذلك في قوله "العرب قد قرروا..." و"العرب تعترف..."؛ إذ إن كلام الحسين السابق ليس فيه أي التزام من العرب باقتصار أخذ الإرشادات على بريطانيا وموظفيها وحدهم، ولا بحرية بريطانيا في اتخاذ ما تريده من إجراءات لحماية مركزها بالعراق. وتظهر معالم الطلب في المقتبس الثاني على استحياء عبر النص على السبب والضرورة في "تستلزم".

وقد حرص مكماهون في صياغة هذا المقتبس – كما أفاد بنفسه – على أن يضمن لبريطانيا كل ما هو دون الضم العسكري الصارخ والمفتوح، أي حرية التصرف في

الإجراءات العسكرية وإدارة المشاريع التجارية والصناعية[1]. وهو ما يضمنه التنكير وانفتاح الدلالات في صياغة تعبير "تدابير إدارية مخصوصة".

كذلك يحمل المقتبس الثالث طلبًا مبطنًا في قوله "يكون من نتائجها المستعجلة..."، نصَّ فيه مكماهون على المحتوى القضوي المطلوب لكن في هيئة افتراض تداولي أخذ صيغة جملة جانبية، لا ركنٍ أساسي من أركان الجملة.

بهذا التخطيط نجح مكماهون في صيانة وجهه السلبي – أو وجه بريطانيا السلبي – ؛ فهو ظاهريًا لم يطلب شيئًا من مخاطَبه، لا بالشكل اللغوي المباشر، ولا غير المباشر، لكنه في الآن نفسه بدأ بإعادة ترتيب موضوعات التخاطب وتشكيل رقعة التفاوض كاملة وفقًا لمصالحه، وأرسل تهديدًا مبطنًا لوجه الحسين الإيجابي، الذي سيدرك بالضرورة أنه في مأزق تفاوضي يواجه فيه التزامات تُنسَب إليه، لكنها قد لا تناسبه، ولا هو أنجز في الحقيقة أي فعل كلامي التزامي بأدائها.

- **الرسالة الخامسة (٥/١١/١٩١٥م –٢٧ ذي الحجة ١٣٣٣هـ):**

وجد الحسين نفسه أمام معضلتين يهدد كل منهما وجهيه: حاجات له لا يستطيع نيلها، والتزامات تورط في نسبتها إليه. ولم يجد بُدًا من التمسك بصيانة وجهه الإيجابي والانخراط في التعاون الذي أظهره مكماهون، فتراجع خطوة في مطالبه و"ترك الإلحاح" – بتعبيره –، وأنجز أفعالًا إعلانية بالتخلي عن بعض المناطق المختلف بشأنها تجاوبًا مع الرغبات البريطانية:

- **"تسهيلًا للوفاق وخدمةً للإسلامية فرارًا مما يكلفها المشاق والإحن ولما لحكومة بريطانيا العظمى من الصفات والمزايا الممتازة لدينا نترك الإلحاح في إدخال ولايات مرسين وأطنة (أضنة) في أقسام المملكة العربية".**

وبقبول إرجاء المطالبة ببعضها إلى أجل مستقبلي غير مسمى، لكنه احتفظ بحقه في رفض التخلي التام عنها لانعدام إمكانية ذلك، على أساس طبيعة الأشياء، مع النص على الأعذار والأسباب التاريخية، إلى جانب تقييد قبول هذا الترك المؤقت بالحصول على مقابل مادي:

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, p. 105.

- **"حيث إن الولايات العراقية هي من أجزاء المملكة العربية المحضة، بل هي مقر حكوماتها على عهد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثم على عهد عموم الخلفاء من بعده، وبها قامت مدنية العرب وأول ما اختطوه من المدن والأمصار واستفحلت دولهم فلها لدى العرب أقصاهم وأدناهم القيمة الثمينة والآثار التي لا تنسى، فلا يمكننا إرضاء الأمة العربية وإرضاخها لترك ذلك الشرف، ولكن تسهيلًا للوفاق سيما والمحاذير التي أشرتم إليها في المادة الخامسة من رقيمكم آنف الذكر... فإن أهم ما في هذا هي صيانة تلك الحقوق الممزوجة بحقوقنا بصورة كأنها الجوهر الفرد يمكننا الرضا بترك الجهات التي هي الآن تحت الإشغال البريطاني إلى مدة يسيرة ... دون أن يلحق حقوق الجانبين مضرة أو خلل... وأن يُدفع للمملكة العربية في مدة الإشغال المقدار المناسب من المال لضرورة ترتكبه كل مملكة حديثة الوجود. مع احترامنا لوفاقاتكم المشار عليها مع مشايخ تلك الجهات وبالأخص ما كان منها جوهريًا".**

وعاد ليعبر عن تمسكه ببعض ثالث كان قد قبل سابقًا التخلي المؤقت عنه أيضًا إلى مستقبل غير مسمى، فرفض التخلي التام وعبر عما يمكن عدُّه **اقتراحًا بديلًا** بأفعال التزامية تضمن حقوق الأقليات في تلك المناطق، جاءت بصيغ حاسمة ممعنة في ضمان وقوع الفعل، أولها استعمال لام الأمر في "لتقوم فيهم"، وثانيها بصيغة غير مباشرة تقوم على النص على تحقق المحتوى القضوي[١]، وثالثها تناص مع القاعدة الفقهية في معاملة أهل الذمة يقوم بذاته على النص على المحتوى القضوي:

- **"وأما ولايتي حلب وبيروت وسواحلهما فهي ولايات عربية محضة ولا فرق بين العربي المسيحي والمسلم فإنهما ابنا جد واحد، ولتقوم فيهم منا معاشر المسلمين ما سلكه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من أحكام الدين الإسلامي ومن تبعه من الخلفاء أن يعاملوا المسيحيين كمعاملاتهم لأنفسهم بقوله "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" علاوة على امتيازاتهم المذهبية وبما تراه المصلحة العامة وتحكم به".**

[١]- النص على تحقق المحتوى القضوي من الوسائل التي شرحها سيرل لإنجاز فعل التزامي غير مباشر.
Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, p. 56.

بهذا القبول المؤقت والرفض المؤجل وتقديم الضمانات يحاول الحسين أن يوازن بين صيانة وجهه السلبي بتمسكه بحقوق العرب الذين يمثلهم مع شيء من الفخر بالتاريخ العربي، ووجهه الإيجابي باندماجه في التعاون مع مفاوضه ورغبته في الوفاق.

كما أنه اضطر صيانةً لوجهه السلبي إلى الالتزام الأخلاقي باحترام الاتفاقات التي أشار إليها مكماهون لبريطانيا مع مشايخ بعض المناطق العربية، على الرغم من كونها اتفاقات لم تُحدَّد أو يُذكَر مضمونها أو عددها، وإن كان رد الحسين يقصرها على الجهات العراقية.

وبهذا خسر الحسين فعليًا أجزاءً من مطالب قيام دولته، وترك ثغرة تفتح مجالًا لخسارات أخرى محتملة؛ فلا هو انتزع موافقة على الحدود التي طلبها، ولا ضمانًا للحدود التي اقترحها مكماهون.

على الرغم من ذلك أوقف الحسين الخوض في مطالبه الأولى أملًا منه في أن ينتهي التفاوض حولها بالتنازل الجزئي الذي قدمه، وانشغالًا بوضع ثقله لمواجهة الالتزامات التي حول مكماهون دفة التفاوض إليها.

لم يكن من مصلحة الحسين بطبيعة الحال خسارة الدعم البريطاني، فلم يُتَح له خيار إنكار الالتزامات المفروضة عليه لأن ذلك يهدد وجهي مخاطَبه باتهامه بالكذب أو سوء الفهم، والتنصل من العلاقة التعاونية معه. لذلك لجأ الحسين إلى منفذين وظف فيهما استراتيجيات التأدب عبر الرفض غير المباشر – ويُعَد هنا مرة أخرى رفضًا مؤقتًا، وربما قبولًا مقيدًا:

أولهما: أنه عمد في رده على مطلب استعجال التحرك المسلح ضد الأتراك، الذي قدمه مكماهون بوصفه نتيجة للتحالف المطلوب بين الجانبين العربي والبريطاني، إلى ذكر الأعذار والتحذير من العواقب، وهما من وسائل إثناء صاحب الطلب عن طلبه، لكنه أشار من طرف خفي إلى انتباهه إلى كونها رغبة بريطانية لا مطلبًا عربيًا، عبر الإضافة الصريحة إلى ضمير المخاطب في تعبير "رغبتكم":

- **"رغبتكم في الإسراع بالحركة نرى فيه من الفوائد بقدر ما نرى فيه من المحاذير، أوله خشية لوم الإسلامية كما سبق الجاهل عن حقائق الحالة بأنَّا شققنا عصاها وأبدنا قواها، الثاني المقام تركيا معاضدتها جميع معاني قوى**

جرمانيا لجهلنا عما إذا حصل وهن إحدى دول الائتلاف وأوجبها على صلح دول الاتفاق".

وثانيهما: اللجوء إلى التقييد بشرط مستقبلي، فاستعمل أسلوب الشرط بقوله:

- **"متى علمت العرب أن حكومة بريطانيا حلفائهم لا يتركونهم عند الصلح على حالهم أمام تركيا وجرمانيا وأنهم يدافعون عنهم ويعاضدونهم ويدافعون عنهم الدفاع الفعلي فالدخول في الحرب من الساعة لا شك أنه مما يوافق المصالح العربية".**

إن التقييد بشرط في الماضي (مثل: "لو أنك سألتني سابقًا") يعد غالبًا رفضًا قاطعًا إذ لا يمكن تغيير الماضي، أما التقييد بشرط في المستقبل فهو رفض قابل لإعادة النظر فيه وفق ضمانات أو تعهدات يمكن لصاحب الطلب أن يؤديها، فيما يعد بحد ذاته فعلًا توجيهيًا غير مباشر بطلب عون بريطانيا يمكن إدراجه ضمن آلية النص على تحقق أسباب الفعل؛ فإسراع التحرك المسلح يقتضي الدعم البريطاني. وهو طلب عضده الحسين قَبلًا عبر آلية السؤال عن تحقق المحتوى القضوي في:

- **"فكيف تكون خطة بريطانيا العظمى وحلفائها لئلا تكن[1] الأمة العربية أمام تركيا وحلفائها معًا؟ إذ لا يهمنا ما إذا كنا والعثمانية رأسًا لرأس".**

ثم بصيغة السبب الإلزامي في:

- **"وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه ولا سيما عقد صلح اشتركنا في حربه بصورة غير رسمية يخول للمتصالحين البحث فيه عن شؤوننا...".**

وبهذا عُدَّ الحسين موافقًا بشكل جزئي على المطالب البريطانية، ومتقبلًا بشكل جزئي لرفض مطالبه السابقة.

لكنه مع ذلك حرص على إرسال طلب أخير يحفظ به وجهه السلبي، ويلفت إلى انتباهه إلى المراوغات البريطانية واستيائه منها، ويثمن التنازل الذي قدمه، ويكرر تأكيد تفويضه من الشعب وعدم سعيه إلى مصلحة شخصية. وظف لذلك الطلب صيغة النص على المحتوى القضوي مع النص السالف على الضرورة، وهي صيغة توحي بحتمية أداء

[1]- هكذا في نص الرسالة، والصواب "تكونَ".

الفعل المطلوب، وعدِّه حقيقة لا سبيل إلى تجاهلها، يقول:

- **"وعلى هذا فضروري ملاحظة هذه الأوجه:... سابعًا – وصول الجواب الصريح القطعي في أقرب زمن على ذكر أعلاه من الطلبات إذ أنَّا استعملنا كل ما يقربنا إليكم من التساهل الجدي الذي لا يراد به حقيقة جوهرية فإنا نعلم أن نصيبنا من هذه الحروب إما سعادة تضمن للعرب الحياة التي تناسب تاريخهم أو الاضمحلال في سبيلها. ولولا ما رأيتم ورأيت ما في عزمهم لاخترت العزلة في شواهق السراة، ولكن أبوا عليَّ يا عزيزي – أعزك الباري بمرضاته – إلا أن يقودني إلى هذه المواقف".**

بهذه الرسالة كان النقاش قد بدأ ينحرف بشكل تام باتجاه مشاركة العرب في القتال وضماناتها ومحاذيرها، مع اعتقاد الحسين بأن عروضه بشأن الدولة والحدود ستلقى القبول البريطاني.

- **الرسالة السادسة (١٩١٥/١٢/١٤م – ٨ صفر ١٣٣٤هـ):**

لقد حقق مكماهون تقدمًا على الحسين عبر استراتيجيته في التمويه والمراوغة والموازنة بين الصيانة الظاهرة لوجهي مخاطَبه والتهديد الباطن لهما، لذلك واصل في رده الثالث الوسيلتين اللتين لجأ إليهما في رده الثاني: تمويه الرفض، ولبس الطلب بالاستجابة.

فعلى الرغم من أن الحسين لم يقدم مطالب جديدة، أعاد مكماهون مناقشة بعض المطالب التي ظن الحسين أنها قُبِلَت؛ من أجل توسعة مساحة الرفض بعد استجابة الحسين للمساحة السابقة، فحاول اختزال تلك المطالب وتفريغها.

لقد أنجز أولًا فعلًا تعبيريًا عن سروره لتخلي الحسين عن مرسين وأضنة:

- **"وسرني ما رأيت فيه من قبولكم إخراج ولايتي مرسين وأطنة (أضنة) من حدود البلاد العربية".**

لكنه فعليًا لم يُثَمِّن هذا التخلي بالقدر الذي رجاه الحسين، ولا اكتفى بتعهده باحترام معاهدات بريطانيا مع بعض زعماء المناطق العراقية، بل حاول تمديد الاستثناء باستثناء آخر أكثر اتساعًا وأقل تحديدًا، فتحول من "بعض رؤساء العرب" في رده السابق إلى "جميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين" و"جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية" في هذه الرسالة، فيحول البعض إلى الكل والمخصص إلى العام، مستغلًا انخراط

الحسين في مبدأ احترام المعاهدات الذي رفعه سابقًا واتخذه وسيلة متجددة للرفض صالحة لإعادة الاستعمال كلما دعت الحاجة، يقول:

- **"وفي قولكم إن العرب مستعدون أن يحترموا ويعترفوا بجميع معاهداتنا مع رؤساء العرب الآخرين يُعلَم منه طبعًا أن هذا يشمل جميع البلاد الداخلة في حدود المملكة العربية لأن حكومة بريطانيا لا تستطيع أن تنقض اتفاقات قد أبرمت بينها وبين أولئك الرؤساء".**

يرى قدوري أن ما كان يدور في ذهن مكماهون هو المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع ابن سعود والإدريسي وحاكم الكويت وشيوخ ساحل عُمان، مشيرًا إلى الصيغة الحرجة والمضللة في الاعتراف غير المقصود بمصطلح "المملكة العربية" الذي استغله الحسين فيما بعد[١].

ومرة أخرى لم يؤدَّ هذا الفعل الطلبي التوجيهي بشكل مباشر، لكن بآلية النص على تحقق المحتوى القضوي، بل بإظهار هذا المحتوى مآلًا حتميًا يلتزم به ملفوظ الحسين نفسه ("يُعلَم منه").

علاوة على ذلك عبر مكماهون عن رفض مُقَنَّع جديد لمحاولة الحسين التمسك بمناطق "حلب" و"بيروت وسواحلها"، ووظف لهذا الرفض عددًا من الوسائل غير المباشرة، منها تكرار محاولة صيانة الوجه السلبي الخاص به بالتعبير عن مبدأ أخلاقي، مع التأجيل الرامي إلى التهرب:

- **"أما بشأن ولايتي حلب وبيروت فحكومة بريطانيا العظمى قد فهمت كل ما ذكرتم بشأنهما ودونت ذلك عندها بعناية تامة، ولكن لما كانت مصالح حليفتها فرنسا داخلة فيهما فالمسألة تحتاج إلى نظر دقيق، وسنخابركم بهذا الشأن مرة أخرى في الوقت المناسب".**

استُعمِلَت في هذا المقتبس أيضًا ألفاظ للطمأنة والاستمالة تؤدي في واقع الأمر فعلًا إخباريًا ولا تعبر عن أي فعل التزامي حقيقي مثل "قد فهمت... ودونت"، فتُوهِم المخاطَب بما قد يَعُدُّه قبولًا وهو في حقيقته رفض. لا سيما وقد ألحق هذا باستدراك للتعبير عن مبدأ

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, p. 116.

والتعذر به، ثم بتأجيلٍ يُقصي مسألة حلب وبيروت من التفاوض الحالي.

لقد أقر مكماهون نفسه بأنه لم يكن على علم بمقدار المطامح الفرنسية في سوريا، ولا إلى أي مدى تقبل بها الحكومة البريطانية؛ لذا فقد حاول أن يقدم صيغة عامة خالية من أية تأكيدات يمكن أن تضر بمصالح فرنسا[١]. كانت المفاوضات البريطانية مع فرنسا حول تقسيم التركة العثمانية – التي انتهت باتفاقية سايكس– بيكو – جارية بالفعل بالتوازي مع مراسلات الحسين، ومع نهاية أبريل ١٩١٥ كانت الاتفاقية قد اكتملت، لكن الإنجليز قرروا إبقاءها سرية عن الحسين نظرًا لارتيابه من التدخل الفرنسي. وعلى الرغم من أنها – كما رأوا – لم تتعارض مع ارتباطاتهم معه، فقد آثروا تجنب سوء التفسير المحتمل لاقتسام مناطق النفوذ، وعولوا على أن مرور الزمن قد يجعل ما هو غير مستساغ آنذاك مقبولًا في المستقبل[٢].

التسلسل نفسه تقريبًا لوسائل الرفض وظفه مكماهون في تقنيع رفضه لتمسك الحسين بولاية بغداد: فعل إخباري غير ملزم، ثم استدراك بذكر عذر ضروري، ثم التجميد بالتأجيل، وذلك مع تجاهل مطلب الحسين بخصوص دفع تعويض مقابل الترك المؤقت لهذه المناطق، والسكوت التام عنه – للمرة الثانية –:

- **"إن حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كل الضمانات والمساعدات التي في وسعها إلى المملكة العربية ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أن صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرًا أدق وأتم مما تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات".**

ووفقًا لإيلي قدوري كان مكماهون قد وُجِّه إلى استبعاد المطلب المالي الذي قدمه الحسين، وإلى النص على أن مصالح بريطانيا تستلزم النظر بتفصيل وعناية فيما يخص بغداد والبصرة، لكن الرد الفعلي من مكماهون على الحسين أغفل ذكر البصرة، وجعل ما تعرضه بريطانيا بالفعل على الحسين غامضًا بدرجة كبيرة[٣].

---

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, pp. 98- 99.

[2]- Ibid., p. 124.

[3]- Ibid., p. 116.

وينقل قدوري عن مكماهون قوله بأنه لم يذكر في رسالته المكتوبة إلى الحسين رفض المطلب المالي، لكنه ألمح إلى رسوله بهذا المعنى، ويعلق بأن ما قاله مكماهون وما فهمه الرسول وما نُقِل إلى الحسين في هذا الشأن يبقى مجهولًا[1]؛ في انتقالٍ متعمَّدٍ إلى استعمال لغة منطوقة لا تعرف التسجيل يصعب إثبات ما جاء فيها، ويسهل إنكاره أو تحويره، عوضًا عن اللغة المكتوبة الموثقة.

بعد هذا يوظف مكماهون للمرة الثالثة على التوالي تسلسل وسائل الرفض في إبداء استجابة منقوصة لرفض الحسين العجلة في التحرك، فمن جديد: فعل إخباري لا يترتب عليه تغيير في الواقع، ثم استدراك لأداء طلب غير مباشر يعتمد على ذكر شرط الإخلاص والسبب الأخلاقي، ثم تقييد الاتفاق كاملًا بهذا الطلب المستقبلي الذي يعود بحد ذاته للانتقاص من قيمة الوجه السلبي للحسين، فيدعوه إلى تحقيق محتوى قضوي، يدعي هو أنه متحقق، بل يتخذه مصدرًا لشرعية تحركه:

- **"وإننا نستصوب تماما رغبتكم في اتخاذ الحذر ولسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم ولكنا في الوقت نفسه نرى من الضروري جدًا أن تبذلوا مجهوداتكم في جمع كلمة الشعوب العربية إلى غايتنا المشتركة وأن تحثوهم على ألا يمدوا يد المساعدة إلى أعدائنا بأي وجه كان. فإنهم على نجاح هذه المجهودات وعلى التدابير الفعلية التي يمكن للعرب أن يتخذوها لإسعاف غرضنا عندما يجيء وقت العمل تتوقف قوة الاتفاق بيننا وثباته".**

كأن مكماهون بعد أن ضمن تراجع الحسين في بعض مطالبه وانخراطه في الالتزام بالمطالب البريطانية، يعود إلى سياسة تهديد الوجه التي اتبعها في رده الأول، فيشكك بشكل ضمني في شرعية التمثيل الرسمي للحسين، ويتهمه في الوقت نفسه إما بالكذب وإما بالجهل بحقائق الأوضاع في منطقته التي يدعي تمثيلها.

أما الرد على شرط الحسين وضع خطة بريطانية لدعم العرب ضد الأتراك بعد الحرب فقد جاء أكثر وضوحًا وتحديدًا من غيره وإن لم يكن مباشًرا، فبدلًا من إنجاز فعل التزامي مباشر لجأ مكماهون إلى الصيغة غير المباشرة القائمة على النص على تحقق

[1]- Ibid., p. 117.

شرط الإخلاص ("لا تنوي... إلا")[1]:

- **"وفي هذه الأحوال فإن حكومة بريطانيا العظمى قد فوضت لي أن أبلغ دولتكم أن تكونوا على ثقة من أن بريطانيا العظمى لا تنوي إبرام أي صلح كان إلا إذا كان من ضمن شروطه الأساسية حرية الشعوب العربية وخلاصها من سلطة الألمان والأتراك".**

ويكاد يكون هذا الالتزام الوحيد الذي نجح الحسين في انتزاعه من مكماهون: الحرية والخلاص من سلطة الألمان والأتراك – أعداء بريطانيا – وليس من سلطة أي طرف آخر.

جدير بالذكر أن مكماهون قد أنهى رسالته بمراوحة متقنة بين تهديد الوجه السلبي للحسين وصيانة وجهه الإيجابي، فهو يعلن إرساله مبلغًا ماليًا لدعم الحسين، في ممارسة ظاهرها إبداء التضامن والاستجابة للدعم المرجو من بريطانيا، لكنها ممارسة لم يطلبها الحسين ولم يشِر في مكتوبه إلى حاجته السياسية إليها:

- **"هذا وعربون على صدق نيتنا ولأجل مساعدتكم في مجهوداتكم في غايتنا المشتركة فإني مرسل مع رسولكم مبلغ عشرين ألف جنيه".**

فحصر بذلك الحسين بين خيارين: إما قبول المال وإهدار ماء وجهه السلبي، وإما رفضه وإهدار ماء وجهه الإيجابي. فكيف انعكس هذا الحصار في رد الحسين؟

- **الرسالة السابعة (١٩١٦/١/١م – ٢٥ صفر ١٣٣٤هـ):**

ضمنت استراتيجية المراوغة لمكماهون عدم الالتزام البريطاني بأي شيء تقريبًا تجاه التحرك العربي، لكنها لم تفلح في الانتزاع الرسمي لمزيد من التنازلات من قِبل الحسين، لا سيما أن توقيت هذه الرسالة جاء مع أخبار هزيمة بريطانيا أمام الأتراك في معركة جنق القلعة التي كانت تهدف إلى احتلال إسطنبول[2].

ومن الواضح أن عودة مكماهون لتهديد وجهي مخاطبه وعدم تقدير تنازلاته قد أسفرا

---

[1]- والنص على تحقق شرط الإخلاص أيضًا من الوسائل التي شرحها سيرل لإنجاز فعل التزامي غير مباشر.
Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, p. 56.

[2]- إحدى معارك الحرب العالمية الأولى وتُعرَف أيضًا بـ"حملة جاليبولي" أو "حملة الدردنيل"، بدأتها القوات البريطانية والفرنسية في فبراير ١٩١٥م بهدف احتلال إسطنبول وفتح ممر للوصول إلى البحر الأسود ومساندة القوات الروسية، وانتهت بهزيمة بريطانيا وفرنسا مع نهايات ١٩١٥م وبدايات ١٩١٦م.

عن غضب شديد من الحسين، ظهر بوضوح في رده، وهو ما جعل قدوري – وربما غيره – يعده ردًا عدائيًا ووقحًا[١].

فعلى الرغم من بدئه رسالته بالتعبير عن الارتياح والانشراح – غير المبرَّرَيْن – يتحول مباشرة في الجملة التالية إلى حالة من الدفاع عن النفس، وبتعبير تداولي الدفاع عن وجهه السلبي، فينفي عن نفسه السعي إلى مصالح شخصية، ويؤكد تمثيله السياسي للمصالح العربية العامة بنسبة الرغبة والإلزام للشعوب العربية ("أقوام") واستعمال المؤكد الحرفي ("إنَّ") والمؤكد الأسلوبي (النفي والاستثناء):

- **"بأنامل الإبجال والتوقير تلقينا رقيميكم ٩ صفر الجاري برفق حاملهم وعلمت مضمونيهما وأدخلا علينا من الانشراح والارتياح ما لا مزيد لإزالتهما ما يختلج بصدري ألا وهو وقوف حضرتك بعد وصول أحمد شريف وحظوته بالجناب بأن كلما أتينا به في الحال والشأن ليس بنا شيء عن عواطف شخصية أو ما هو في معناها مما لا يعقل، وإنها قرارات ورغائب أقوام وإنا لسنا إلا مبلغين أو منفذين لها بصفتنا التي ألزمونا بها إذ هذا عندي من أهم ما يجب وقوف شهامة الجناب عليه وعلمه به".**

يُعَدّ الدفاع عن النفس من وسائل الرفض التي تهدف إلى إثناء المحاور عن طلبه، وهو هنا طلب مكماهون جمع كلمة الشعوب العربية الذي حمل ضمنًا اتهامًا بتقصير الحسين أو عدم أهليته.

مباشرةً ينتقل الحسين إلى تأكيد مطلبه السابق حول التعويض عن احتلال المناطق العراقية المتفاوَض عليها بفعل إعلاني مفاده ترك تقدير مبلغ التعويض إلى الحكومة البريطانية، ما يحمل بدوره افتراضًا سابقًا Presupposition باتفاق طرفي التفاوض على وجود التعويض وتسليمهما به؛ إذ يتجاوز الافتراض السابق ما يُعرَف باختبار النفي[٢]؛ فترْك تقدير المبلغ أو عدم ترْكه يُبقي قضية وجود مبلغ للتعويض بحد ذاتها مثبتة، يقول:

- **"أما ما جاء بالمحررات الموقرة فيما يتعلق بالعراق من أمر التعويض مدة**

---

[1]- Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*, p. 119.

[٢]- مانغونو، دومينيك: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)/ منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٨، صـ ١٠٥.

الإشغال فلزيادة إيضاح وقول بريطانيا العظمى بصفاتنا في القول والعمل في المادة والمعنى وإعلامها بأكيد اطمئنانًا باعتماد حكومتها المفخمة نترك أمر تقدير مبلغه لمدارك حكمتها ونصفتها".

وهو المطلب الذي أغفله مكماهون تمامًا بالسكوت عنه؛ فدفع الحسين – عمدًا أو عن سوء فهم – إلى هذا الافتراض بقبول بريطانيا دفع تعويضات للمدة التي يؤجل فيها تسليم هذه المناطق للحكم العربي، إذ يُروَى أن الحسين عَدَّ الدعم المالي البريطاني الذي كان يقدم إليه جزءًا من هذا التعويض[1]. وربما أسهم المبلغ الذي أعلن مكماهون إرساله "عربونًا" على صدق النية في تقوية هذا الافتراض، أو أن هذا التأويل كان المَخرَج الذي وجده الحسين لصيانة وجهيه.

أيضًا فيما يخص بيروت وسواحلها أعاد الحسين موقفه في التخلي المؤقت – وليس الدائم – عنها، فأكد حق العرب في طلب استعادتها مستقبلًا، معبرًا بهذا عن عدم إمكانية تزحزحه مسافة أكبر عن تنازلاته السابقة، ورفضه مزيدًا من التراجع، الرفض الذي وظف لأجله وسيلة مباشرة غير أدائية هي نفي إمكانية الحدث، لكنه أتبعها بوسيلة غير مباشرة حفاظًا على وجهه الإيجابي الخاص بتأكيد انخراطه في الحالة التعاونية الدبلوماسية بين الطرفين، هي التحذير من العواقب، يقول:

- **"أما الجهات الشمالية وسواحلها فما كان في الإمكان من تعديل أتينا به في رقيمنا السابق هذا، وما ذاك إلا للحرص على الأمنيات المرغوب حصولها بمشيئة الله تبارك وتعالى وعن هذا الحس والرغبة هما التي ألزمتنا بملاحظة اجتناب ما ربما أنه يمس حلف بريطانيا العظمى لفرنسا واتفاقهما إبان هذه الحروب والنوازل إلا أننا مع هذا نرى من الفرائض التي ينبغي لشهامة الوزير صاحب الرياسة أن يتيقنها بأن عند أول فرصة تضع فيها أوزار هذه الحروب سنطالبكم بما نغض الطرف عنه اليوم لفرنسا في بيروت وسواحلها ولا أرى لزومًا بأن نحيطكم بما في هذا أيضًا من تأمين المنافع البريطانية وصيانة حقوقها هو أهم وأكبر مما يعود إلينا، وأن لا بد من هذا على أي حالة كانت**

[1]- Ibid., p. 152.

ليتم للعظمة البريطانية أن ترى أخصاءها في البهجة والرونق التي تهتم أن تراهم فيه سيما وأن جوارهم لنا سيكون جرثومة للمشاكل والمناقشات التي لا يمكن معها استقرار الحالة عدا أن البيروتيين بصورة قطعية لا يقبلون هذا الانفصال ويلجئونا على حالات جديدة تهم وتشغل بريطانيا بصورة لا تكون بأقل من اشتغالنا الحالي بالنظر لما نعتقده ونتيقنه من اشتراك المنفعة ووحدتها وحدها وهي الداعية الوحيدة لعدم التفاتنا لسواكم في المخابرات وعليه يستحيل إمكان أي تساهل يكسب فرنسا أو سواها شبرًا من أراضي تلك الجهات".

فهو بنفي إمكانية الحدث يتنصل خطابيًا من إبداء رغبة شخصية في الرفض، مُرجعًا إياه إلى عدم امتلاكه حرية التصرف في الأمر، فخيار قبول التنازل المطلوب منه ليس بيده. كما يوازن في تحذيره بين الترغيب والترهيب – أو كما عَدَّه قدوري استبدالًا لنبرة السماحة بنبرة التهديد[١] –.

على الرغم من انفعال الحسين وتصديه للدفاع عن وجهه السلبي، وعلى الرغم من رفضه الحاسم للتنازل التام عن المطالبة بالمناطق الشامية والعراقية التي أرادها مكماهون ونفاد رصيد تراجعاته، فإن ما لم يكن بمقدور الحسين هو إغضاب المفاوض البريطاني، ليس فقط لأن بريطانيا كانت القوة العظمى الرئيسة في ذلك الزمان، بل أيضًا بسبب آليات المراوغة التي وظفها مكماهون في تفاوضه معه، والتي أوحت إلى الحسين بأنه ليس لديه الكثير ليفاوض عليه، وضمنت لبريطانيا اليد العليا في هذا التفاوض، فهي لا تطلب شيئًا من العرب ولا تدفعهم إلى تحرك لا يستفيدون منه، وإنما كل ما تقوم به هو الاستجابة والدعم لمطالبهم، ومن ثم فإن الحسين بحاجة إلى بريطانيا، لكن بريطانيا ليست بحاجة إليه.

إذن لم يجد الحسين بُدًّا من تكرار تأكيد انخراطه في التعاون والمنافع المشتركة، وحتى استجابته للرغبة البريطانية في الإسراع بالتحرك المسلح، ليختم رسالته بالتهيئة لطلبه الجديد الذي عبر عنه بالصيغة المباشرة عبر مصدر الفعل الأدائي للطلب:

- **"فليعتقد جناب الوزير الخطير ولتعتقد بريطانيا الكبرى أنَّا على العزم الذي أشير**

[1]- Ibid., p. 118.

إليه ويعلمه منا جناب الأريب الكامل استورس منذ عامين ولا نناظر فيه إلا الفرص المناسبة لأحوالنا وأخصها داعيته ووسيلته التي اقترب وقتها مما تسوقه الأقدار إلينا بكل سرعة ووضوح لتكن حجة لنا وعن رأينا على الاعتراضات والمسؤوليات المقدرة وفي تصريحاتكم بقولكم "وإنا لسنا نريد أن ندفعكم إلى عمل سريع ربما يعرقل نجاح أغراضكم" يغني عن زيادة الإيضاح، ما عدا طلب ما نرى لزومه عند الحاجة من الأسلحة وذخائرها الحربية وما هو في معناها".

- **الرسالة الثامنة (١٩١٦/١/٣٠م – ٢٤ ربيع الأول ١٣٣٤هـ):**

لم يعد لدى المفاوِض البريطاني ما يدفعه إلى الاستمرار في التفاوض بعد أن حقق غرضه في دفع العرب إلى الإعداد لتحرك مسلح أقنعهم بأنه مطلب حتمي لهم، وحتى جعلهم يلتمسون الدعم البريطاني لإتمامه.

لذلك لم يَبْقَ أمامه سوى أن يحافظ على هذا المكسب، بالمحافظة على حالة التعاون العربي مع بريطانيا. ولا سبيل إلى هذا سوى العودة إلى صيانة وجهي المفاوِض العربي: السلبي بتأييد محاولاته في الدفاع عن صورته الاستقلالية وتقدير القيم التي عبر عنها لنفسه، والإيجابي بعدم الرفض الصريح لمطالبه التعاونية، وهذا على الرغم من الحدة التي بدا عليها خطاب الحسين. ولعل النظرة التداولية المرتكزة على مبدأ صيانة وجه المخاطَب هي ما يفسر ما عدَّه بعض الإنجليز آنذاك اندفاعًا من مكماهون تجاه الحسين قد يعطيه انطباعًا غير مرغوب فيه بأن أهميته بالنسبة إلى بريطانيا أكبر من أهميتها بالنسبة إليه، وهو ما برره مكماهون نفسه بقوله إنه كان مضطرًا إلى تقديم ضمانات عاجلة تدفع العرب إلى الوقوف في صف بريطانيا بدلًا من عدوها[1]. وقد كان مكماهون بكل الأحوال في سعة من أمره لإبداء بعض التجاوب الشكلي بعد أن حقق ما يرجوه من التفاوض وبقي عليه فقط الحفاظ عليه.

وفي الوقت نفسه كان عليه أن يُنهي التفاوض الذي لن يُدِّرَ عليها نفعًا بعدُ؛ فالحسين لا يملك مزيدًا من التنازلات. وإذ أدرك أن آليات الموافقة الزائفة أو الرفض المُقَنَّع

[1]- Ibid., p. 119.

وحدها تدفع الحسين إلى مزيد من الجدال، فقد قرر أن يقوم بمناورة جديدة، تمثلت في صرف النظر بشكل تام إلى العنصر الذي قدمه تدريجيًا من خلفية السياق إلى واجهة التفاوض، وهو المعركة المسلحة ضد الأتراك، وفرضها أولويةً وحيدة لأجندة المراسلات، وتعليق كل قضايا التفاوض بالانتصار فيها عبر فعل التزامي مقيد، فيجمد بذلك التفاوض على حالة من التأجيل والغموض:

- **"وإننا لنقدر حق التقدير الدوافع التي تقودكم في هذه القضية الهامة ونعرف جيدًا أنكم تعملون في صالح العرب وأنكم لا ترمون إلى شيء في عملكم غير صالحهم وحريتهم وقد عنيت عناية خاصة بملاحظاتكم بشأن ولاية بغداد، وسنبحث هذا الموضوع باهتمام وعناية زائدين عندما تتم هزيمة الأعداء ونصل إلى التسويات السلمية.**

أما ما يتعلق بالجهات الشمالية فقد كتبت ملاحظة عن رغبتكم في تجنب كل ما من شأنه الإساءة إلى تحالف إنكلترا وفرنسا وسررت جدًا بإبداء مثل هذه الرغبة".

أكثر الأفعال الموظفة في هذا المقتبس لا تؤول إلى تغيير في العالم، فهي إما أفعال إخبارية تطابق فيها الكلماتُ العالمَ (نعرف– عنيت– كتبت) وإما أفعال تعبيرية لا اتجاه مطابقة لها (نقدر– سررت)، والفعل الالتزامي الوحيد هنا المنتظر أن يؤدي إلى استجابة في العالم هو المقيد بالأولوية البريطانية في الانتصار في المعركة (سنبحث)، الذي يرفق من خلاله مكماهون تطميناته الغامضة بمحاولة حفظ الوجه السلبي لبريطانيا أمام تشكيك الحسين الضمني في انتصارها بعد معركة جنق القلعة بتهديد ضمني آخر مفاده أن عدم انتصار بريطانيا وحلفائها يعني بالضرورة عدم تحقق المطالب العربية.

وقد أشار إيلي قدوري إلى الغموض وعدم المباشَرة في كلمات مكماهون هذه التي كتبها دون الرجوع للحكومة البريطانية – وفقًا لقدوري[١] –، الغموض الذي برره مكماهون أيضًا بقوله: إنه كان غموضًا ضروريًا؛ لأن حكومة جلالة الملك لم تكن راغبةً في الالتزام بعملٍ مستقبليٍ محدد، كما أن أي تعريف مفصل للشروط البريطانية كان سيخيف

[1]- Ibid., p. 118.

العرب[١]، وإنه لم يكن يتخيل للحظة أن هذه المفاوضات ستشكل حقًا الوجه المستقبلي للمنطقة، فكل ما كان يسعى إليه هو استمالة الشعب العربي إلى الطريق "الصحيح" وفصله عن "العدو"، وهذه بالنسبة إليه آنذاك كانت "مسألة كلمات" يتطلب النجاح فيها استخدام مفردات مُقَنَّعَة والامتناع عن المساومة على الشروط، سواء حول بغداد أو أي مكان آخر[٢].

بعد ذلك يتوجه مكماهون إلى مقصده الرئيس في تحويل كل الاهتمام والجهد العربي باتجاه المشاركة في الحرب إلى جانب بريطانيا، معتمدًا في أداء طلبه على صيغة شاذة غير معتادة، يقول:

- **"والآن وقد قررت البلاد العربية أن تشترك معنا في الدفاع عن الحقوق وتعمل معنا في سبيل هذه القضية الهامة فإننا لنرجو الله أن تكون نتيجة هذه الجهود المشتركة وهذا التعاون الوطيد، صداقة دائمة، تعود على الجميع بالسرور والغبطة.**

وقد سررنا جدًا للحركة التي تقومون بها لإقناع الشعب بضرورة الانضمام إلى حركتنا والكف عن مساعدة أعدائنا، ونترك لفطنتكم وتقديراتكم تقرير الوقت المناسب، لاتخاذ تدابير أوسع من هذه".

لقد أشار جون سيرل أنه لا يمكن إنجاز فعل توجيهي طلبي بالنص على وجود سبب إذا كان هذا السبب رغبة المخاطَب، فحينها يمكن إنجاز الطلب بالسؤال فقط[٣]. فيمكن للمتحدث أن يؤدي فعلًا إنجازيًا غير مباشر عن طريق تأكيد وضع نفسي خاص به لكن لا يمكنه ذلك بالسؤال عنه، بالمقابل يمكنه أن يؤدي فعلًا إنجازيًا غير مباشر بالسؤال عن وضع نفسي خاص بمخاطَبه، ولا يمكن بتأكيده[٤]؛ وذلك لأنه من الغريب في الظروف العادية أن يسأل المرء الآخرين عن وضع نفسي خاص به هو، أو أن يؤكد لهم وضعًا نفسيًا خاصًا بهم، فلا أحد يعرف ما يريده المرء أو يؤمن به أو ينويه أفضل مما يعرف هو نفسه، ولا يمكن لأحد أن يعرف ما يريده الآخرون أو يؤمنون به أو ينوونه أفضل مما

---

[1]- Ibid., p. 119.
[2]- Ibid., p. 120.
[3]- Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, p. 45.
[4]- Ibid., p. 55.

يعرفون هم[١].

هذا الذي عدّه سيرل غريبًا أو شاذًا (odd) وظفه بالفعل المُفاوِض البريطاني، فخرق القاعدة ونص على "قرار" من قِبل العرب، ليُعبر عما هو في الواقع توجيه بريطاني دُفعوا إليه، في إيحاء بأنه قرار عربي ذاتي، لم يطلبه البريطانيون لغويًا بأي صيغة من صيغ الطلب المعتادة المباشرة أو غير المباشرة، بل بفرض أن بريطانيا تعرف ما يريده العرب أكثر من العرب أنفسهم.

يمكن إذن وسم هذه الرسالة بسمتين رئيستين هما: فرض الأولويات البريطانية وتجميد التفاوض.

- **الرسالة التاسعة (١٩١٦/٢/١٤م – ١٤ ربيع الآخر ١٣٣٤هـ):**

استجاب الحسين للأولوية البريطانية بضرورة بدء القتال، ولعله عدَّ تقييد مطالبه المتعلقة بالدولة العربية وحدودها بالانتصار في الحرب وعدًا بتحقيقها، حتى إنه قد رأى في رد مكماهون السابق "حصولًا للتفاهم المطلوب والتقارب المرغوب" وفقًا لتعبيره، على الرغم من أن مكماهون لم ينجز في رسائله كلها أي فعل التزامي بهذا المحتوى القضوي.

من ثَم أنهى الحسين بدوره التفاوض ولم يعد إلى الحديث عن أيٍ من مطالبه السابقة بلا أي ضمانات لتحقيقها، وانتقل إلى مناقشة الإعداد للمعركة المسلحة التي أكسبتها بريطانيا الأولوية:

- **"بعد فبأيدي التوقير والاحتشام تلقينا رقيم الفخامة المؤرخ ٢٥ ربيع أول، وإن مضامينه أدخلت علينا مزيد الارتياح والسرور لحصول التفاهم المطلوب والتقارب المرغوب أسأل الله أن يسهل المقاصد وينجح المساعي. ومن الإيضاحات الآتية نفهم الفخامة الأعمال الجارية والأسباب المقتضية...".**

انتقل الحسين إذن إلى تقديم مطالبه الجديدة الخاصة بهذا الإعداد للمعركة المرتقبة، مهد لها بما يشبه التقرير عن الخطوات الفعلية التي اتخذها صيانةً لوجهيه، وبخاصة وجهه الإيجابي التعاوني أمام المفاوِض البريطاني الذي يصر عليه من أجل التحرك، فذكر

[1]- Ibid., p. 51.

توزيعه للمهام القتالية بين ولديه[1]، وقدم معلومات عن الأعداد والمواقع واحتمالات سير المعارك.

ثم قدم بعدها مطالبه العسكرية، في صيغة طلب غير مباشر، واضح، لكنه تأدبي، بقوله: "بقي علينا **بيان ما نحتاجه**". اعتمدت هذه الصيغة وجميع ما أدرج تحتها من نقاط على آلية النص على أسباب الفعل المطلوب، وغالبًا ما تعد الأسباب من الحاجات والضرورات والواجبات:

- "مبلغ خمسين ألف جنيه ذهبًا لمشاهرة القوات المجندة ونحوها مما ضرورته تغني عن بيانه".
- "إحضار عشرين ألف كيس أرز وخمسة عشر ألف دقيق وثلاثة آلاف شعير ومائة وخمسين كيس بن قهوة ومثلها سكر ومقدار خمسة آلاف بندقية من الطرز الجديد **وما تحتاجه النسبة** لها من المرميات...".
- "بالنظر لكون المواد الغذائية واللوازم الحربية الموضحة أعلاه **لا حاجة لنا بها إلا عند ابتداء الحركة**، وسنبلغكم إياها بصورة رسمية تبقى في الموضع المذكور **وعند الحاجة إليها** يبلغ أمير الجهة المذكورة...".
- "**تعهد** الحكومة البريطانية العظمى قبول هذه المصاريف الحربية **بموجب** الدفاتر التي تقدم إليها ببيان الوجهة التي صرفت فيها".

ومن الضروري الالتفات إلى طلب الحسين الأخير في رسالته الأخيرة إلى مكماهون؛ إذ طلب منه بوضوح إنجاز فعل التزامي بتحمل المصروفات الحربية، ما يعني – بشكلٍ ما – أنه لا يتوقع ممانعة لهذا الطلب، وأنه يدرك – بالرغم من تجاوبه مع التشكيل الجديد للأولويات – أن اشتراكه في الحرب أولوية بريطانية تنتفع منها بريطانيا قبل العرب، وعليها تحمل تكاليفها.

- **الرسالة العاشرة (١٠/٣/١٩٣٤م – ٦ جمادى الأولى ١٣٣٤هـ):**

حصل المفاوِض البريطاني على كل ما رجاه من التفاوض بانخراط العرب في معركة لمصلحة بريطانيا دون أن تتكلف بريطانيا أية التزامات استراتيجية، ومع احتفاظه

[1]- نجله الأكبر علي بن الحسين (ت ١٩٣٥م) ملك المملكة الحجازية الهاشمية لاحقًا، والثالث فيصل بن الحسين (ت ١٩٣٣م) ملك العراق لاحقًا.

حتى الرسالة الأخيرة بإعلاء وجهيه السلبي والإيجابي، بتصوير تحريضه على هذه المعركة وانتفاعه منها كأنهما مجرد استجابة للرغبة العربية، لم يعبر عنها فقط عن طريق الأفعال الكلامية الإخبارية (أخبركم– ستحضر– أعلمنا) والتعبيرية (يسرني) والتصريحية (صادقت)، بل بأفعال التزامية غير مباشرة واضحة تعتمد النص على تحقق المحتوى القضوي الذي يمثَّل بوصفه رغبة عربية (فهو مُرسَل– ستحضر– سيجريها):

- "وقد **يسرني** أن **أخبركم** بأن حكومة جلالة الملك **صادقت** على جميع مطالبكم وأن كل شيء **رغبتم الإسراع فيه وفي إرساله فهو مرسل** مع رسولكم حامل هذا **والأشياء الباقية ستحضر بكل سرعة** ممكنة وتبقى في بور سودان تحت أمركم لحين ابتداء الحركة وإبلاغنا إياها بصورة رسمية كما ذكرتم، وبالمواقع التي يقتضي سوقها إليها والوسائط التي يكونون حاملين الوثائق بتسليمها إياهم.
إن كل التعليمات التي وردت في محرركم قد **أعلمنا** بها محافظ بورسودان وهو **سيجريها** حسب رغبتكم".

هذا على الرغم من أن "جميع" تلك المطالب المذكورة هي فعليًا استجابة للإرادة والتوجيه البريطانيين، وليست بأية حال المطالب العربية التي بدأ التفاوض على أساسها، فكأن بريطانيا في واقع الأمر "تستجيب لنفسها".

لا يختم مكماهون رسالته قبل أن يستغل قبول الحسين الانخراط في المعركة، فيوجهه من جديد إلى الاصطدام ببعض العرب الموالين للأتراك اصطدامًا مسلحًا هذه المرة، غير عابئ بتقنيع طلبه بعد أن حصل على ما يريد، فوظف – ربما للمرة الأولى، والأخيرة – النص على شرط الإخلاص عبر فعل إنجازي ثانوي صريح في التعبير عن الرغبة البريطاني هو الفعل "نأمل"، وليس " نرى" كما في مرات سابقة، وإلى جانبه وظف النص على تحقق الشرط التمهيدي وليس السؤال عنه، ما يعني أن إمكانية الفعل أو انعدامها تحددهما بريطانيا وتملك إتاحتهما ومنعهما. يقول مكماهون:

- "وقد بلغنا أن ابن الرشيد قد باع للأتراك عددًا عظيمًا من الجمال، وقد أرسلت إلى دمشق الشام. **ونأمل** أن تستعملوا كل ما لكم من التأثير عليه حتى يكف عن ذلك، وإذا صمم على ما هو عليه **أمكنكم عمل الترتيب** مع العربان الساكنين بينه وبين سوريا أن يقبضوا على الجمال حال سيرها، ولا شك أن في ذلك صالح

لمصلحتنا المتبادلة".

خاتمة:

سعى هذا البحث إلى التحليل التداولي للوسائل اللغوية التي وظفها كلٌ من الحسين بن علي وهنري مكماهون في تفاوضهما حول قيام دولة عربية مستقلة، الأول بغرض نَيْل الدعم البريطاني للدولة وحدودها وحكمه لها، والثاني بغرض نَيْل الدعم العربي في الحرب العالمية مع التملص من أية التزامات لا تلائم السياسة البريطانية، ومع حرص كليهما على الاحتفاظ بحالة تخاطبية تعاونية.

يمكن استخلاص أهم نتائج البحث كما يلي:

١. كلٌ من فعل الطلب وفعل الرفض في التداول السياسي يعتمد بالأكثر على الصيغ غير المباشرة. أما الطلب فيُلجأ فيه إلى الصيغ غير المباشرة – لا سيما في المطالب الجوهرية – بهدف التقليل من تهديد الوجه السلبي للمخاطَب، وبخاصة إذا كان ميزان القوة يميل لصالحه.

وأما الرفض فقد يعتمد على الصيغ غير المباشرة بهدف التقليل من تهديد الوجه الإيجابي لصاحبه، لكنه كثيرًا ما يعتمد عليها للمراوغة وعدم الالتزام بإجابة الطلب.

وحتى حين يُلجأ في الرفض إلى صيغة مباشرة، تكون في الغالب صيغة التعبير عن انعدام الإمكانية التي تعزو الرفض إلى طبيعة الأشياء، لا إلى رغبة الرافِض.

٢. في التفاوض لا يقع الطلب والرفض أو القبول بشكل نهائي ولا موضعي، بل وسط تأرجح ومد وجزر من الاستجابات والقبول المنقوص وتكرار الطلب وتوسعة الرفض؛ ما يخلق فوضى تُعفي الطرف المُوجَّه إليه الطلب من المسئولية، وتُعجِز صاحب الطلب عن القبض على حجة تضمن تحقق طلبه، حتى لَيمكن القول إن كل ما هو ليس موافقة صريحة ومباشرة قد يُعَدُّ رفضًا غير مباشر.

٣. لم يقتصر توظيف الصيغ غير المباشرة في الطلب والرفض على أحد الطرفين دون الآخر، لكن توظيفها وأثرها اختلف فيما بينهما.

وظفها مكماهون لتقنيع مطالبه، وتمويه رفضه، ضمانًا ليد بريطانيا العليا في

التفاوض وتلافيًا لتقديم أي التزامات لا تتناسب مع خططها الاستراتيجية.

أما الحسين فلجأ إليها في محاولته تجنب أي حدة في الخلاف من شأنها أن تغضب الحليف البريطاني وتفقده دعمه، وظنا منه أن العبارات الفضفاضة قد تكسبه مساحة تأويل واسعة لصالحه، الأسلوب الذي لم يؤتِ ثماره المرجوة وانقلب على ساحره، لأنه كان باستمرار خلال التفاوض الطرف الذي يحتاج إلى الآخر لتحقيق مطالب واضحة لكنه لم يصر على تلقي موافقات واضحة، في حين حقق الطرف الآخر مطالبه بغير حتى أن يطلبها.

٤. الإسراف في محاولات صيانة وجهي المخاطَب ووجه المخاطِب الإيجابي بالتعبيرات الملطفة والتعاونية قد توحي بالانقياد التام لسلطة المخاطَب، وتمهد أمامه الطريق للاستهانة بالطلب أو تجاهله.

هذا تمامًا ما بدا من مجاملات الحسين بوضعه كل مفاتيح التحرك بأيدي المفاوِض البريطاني، ما أوحى بنفاد كل الطرق الرامية لإنشاء دولة عربية بغير موافقة بريطانيا، على الرغم من أن السياسيين البريطانيين أنفسهم كانوا يقيمون حسابًا للاحتمال المضاد بتحالف العرب مع الألمان.

٥. تهديد وجه صاحب الطلب برفض طلبه في بداية التفاوض أثار غضبه وأدى إلى إلحاحه على طلبه وتبريره، لكن المراوحة بين وسائل تهديد الوجه ووسائل صيانته، ومجيء التهديد بعد قطع شوط من المجاملة ووسائل الصيانة يُقَيِّدان قدرته على الإلحاح ويدفعانه إلى استعمال وسائل الدفاع عن النفس وتأكيد انخراطه في التعاون، ما يفتح أمام الطرف الآخر ثغرات ينفذ من خلالها لتحقيق مراميه وإعادة صياغة أولويات التخاطب.

٦. حرص المفاوِض البريطاني عند نقل أهدافه الخاصة إلى سلم الأولويات على صبها في قوالب غير طلبية على الإطلاق، كالأفعال الإخبارية أو التعبيرية، والافتراض السابق، والالتزام بالاستجابة لمطالب لم تُطلَب من الأساس.

٧. كذلك فعل في تجنب الاستجابات الصريحة، فلم ينجز أفعالًا التزامية تؤثر في الواقع بقبول أية مطالب عربية، ولجأ بدلًا منها إلى التمويه بإنجاز أفعال إخبارية تطابق فيها الكلمات واقعًا سالفًا، أو أفعال تعبيرية ليس لها اتجاه مطابقة بين

الواقع والكلمات.

٨. عمد المفاوِض البريطاني عند مناقشة النقاط ذات الحساسية إلى خرق قاعدة الطريقة في المبدأ التعاوني، واستعمال عبارات يشوبها اللبس واحتمال تعدد التأويلات، علاوة على آلية الاستلزام الحواري؛ فلا يمكن تحديد التأويل الصحيح إلا لمن يملك خبرة كبرى بالسياق السياسي واطلاعًا أوسع على التفاهمات الدولية، أي للطرف البريطاني نفسه. وبهذا ضمن لبريطانيا – فيما بعد – إخلاء مسئوليتها عن أي فعل التزامي تجاه العرب بلا ردع دولي.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا المراجع العربية والمترجمة:

١. أوستين، جون: نظرية أفعال الكلام العامة– كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، أفريقيا الشرق، ١٩٩١.

٢. جورج أنطونيوس: "يقظة العرب"، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.

٣. عادل مصطفى: المغالطات المنطقية– طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومي (فصول في المنطق غير الصوري)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧.

٤. عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب– مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بنغازي، ط١، ٢٠٠٤.

٥. مانغونو، دومينيك: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحياتن، الدار العربية للعلوم ناشرون (بيروت)/ منشورات الاختلاف (الجزائر)، ط١، ٢٠٠٨.

ثانيًا: المراجع الأجنبية:

1. Beebe, Leslie M., Tomoko Takahashi, and Robin Uliss-Weltz. "Pragmatic transfer in ESL refusals." In *Developing Communicative Competence in a Second Language*, ed. Robin Scarcella, Elaine Andersen, Stephen Krashen. New York: Newbury House, 1990.
2. Brown, Penelope, and Stephen C. Levinson. *Politeness: Some Universals in Language Usage*, Cambridge University Press,

1987 (first published 1978).
3. Cai, Deborah A., and Steven R. Wilson. "Identity implications of influence goals: A cross-cultural comparison of interaction goals and facework." *Communication Studies* 51, no. 4 (2000).
4. Cruse, Alan. *A glossary of semantics and pragmatics*. Edinburgh University Press, 2006.
5. Grice, H. P. *Studies in the Way of Words*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1991.
6. Johnson, Danette Ifert, Michael E. Roloff, and Melissa A. Riffee. "Responses to refusals of requests: Face threat and persistence, persuasion and forgiving statements." *Communication Quarterly* 52, no. 4 (2004).
7. Kedouri, Elie. *In the Anglo-Arab labyrinth: The McMahon-Husayn correspondence and its interpretations 1914-1939*. Cambridge University Press, digital print 2010 (first published 1976).
8. Putnam, Linda L. "Negotiation and discourse analysis." *Negotiation journal 26*, no. 2 (2010).
9. Searle, John R. “A Taxonomy of Illocutionary Acts.” In *Language, Mind and Knowledge*, ed. Keith Gunderson. Minneapolis: University of Minnesota Press, 1975.
10. Searle, John R. *Expression and Meaning: Studies in the Theory of Speech Acts*, Cambridge University Press, 1999 (first published 1979).

ثالثًا: مواقع إلكترونية:

1. www.britannica.com/topic/Husayn-McMahoncorrespondence.
(موقع دائرة المعارف البريطانية، ومنه التعريف بالمراسلات وسياقها)
2. www.palestine-studies.org.
(الموقع الإلكتروني لمؤسسة الدراسات الفلسطينية، ومنه نصوص مراسلات الحسين– مكماهون، وتقرير اللجنة المؤلفة لدرس مراسلات حسين– مكماهون في مؤتمر لندن ١٩٣٩)